

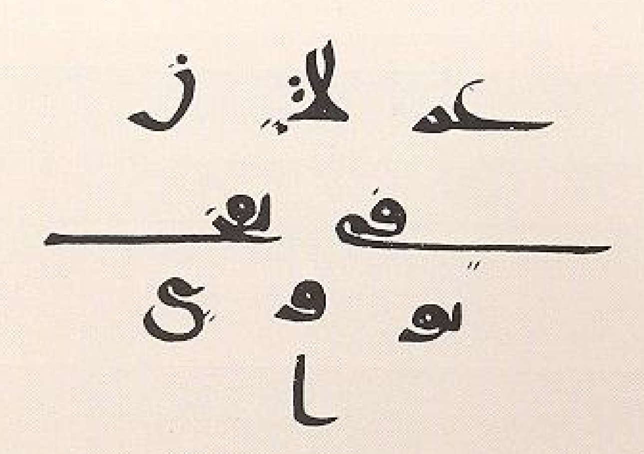


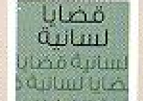


أحمد المتوكل

اللسانيات الوظيفية المقارنة

دراسة في التنميط والتطور





اللسانيات الوظيفية المقارنة

دراسة في التنميط والتطور

أحمد المتوكل







بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0275-0

جميع الحقوق محفوظة



4، زنقة المامونية - الرباط - مقابل وزارة العدل
هاتف: 537723276 212+ - فاكس: 537200055 212+
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

الفصل الثالث: الانعكاس البنيوي وتطور اللغات

تصدير

مُرامنا في هذا البحث أن نقترح للنظر والنقاش تصوّرا يمكن عدّه جديدا للسانيات المقارنة.

جديد هذا التصور يمكن لمسه في ثلاثة وجوه: أولها، الإسهام في توطيد انفتاح المنحى الوظيفي على الدراسات المقارنة-التأريخية،

ثانيها، توسيع مفهوم المقارنة كي يشمل المقارنة بين أنماط الخطابات والمقارنة بين مختلف حِقَبِ وسنكرونيات اللغة الواحدة بالإضافة إلى ما يعنيه هذا المفهوم تقليدا من المقارنة بين اللغات،

وثالثها، وأهمها تأسيس المقارنة في هذه المجالات الثلاثة على مبدإ وظيفي واحد، مبدإ "الانعكاس البنيوي" الذي يحكم من حيث الوسيلة ومن حيث الكيفية معا الربط بين المستويين الدلالي والتداولي من جهة وبين المستويين الصرفي-التركيبي والفونولوجي- التنغيمي من جهة ثانية.

الرباط، 2/شتنبر/2011

مقدمة

تُعنى الدراسات اللغوية المقارنَة بعمليـتين اثنـتين متلازمـتين في الغالب وإن لم يكن من الضروري أن تتلازما: عملية استكشاف مـا يؤالف بين اللغات الطبيعية (البشرية) وما يخالف بينها وعملية رصـد مختلف التغيرات التي تطرأ على لغة ما (أو على نمط لغوي مـا) عـبر مراحل تطورها. اتخذ هذا الضرب من الدراسات اللغوية مسارا نرصد أهم محطاته في ما يلي:

أ) اهتم الفكر اللغوي القديم (عربيا وغير عربـي) بالتقعيد لظـواهر لغة بعينها دون غيرها من اللغات، فكانت نتيجة هذا التقعيد وضع "نحو خاص" (بالمعنى الحديث لهذا المفهوم).

ذهب اللغويون القدماء، بوجه عام في هذا الشأن، مذهبين مجانبين كليهما للصواب: فمنهم من قصر التقعيد على لغة واحدة ظانا أنها وحدها تستحق التقعيد، ومنهم من سعى في وضع "نحو عـام" إلا أن هذا النحو العام بُني على التقعيد للغة واحدة. و لم يكن للبعـد التاريخي في الفكر اللغوي القديم حُظوة تفضل حظوة البعد التقاربي حيث عُدَّت ظواهر حِقب لغوية مختلفة ظـواهر لغـة واحـدة وعوملت على هذا الأساس. من ذلك ما نراه حاصلا في المعـاجم القديمة.

ب) لم تتأسَّس الدراسات اللغوية المقارنة إلا في القرن التاسـع عشـر حيث انصب الاهتمام على تصنيف اللغات وجمعهـا في فصـائل سلالية (لغات سامية، لغات لاتينية، لغات سلافية...)؛ كما عنيت

نفس الدراسات بالتطوّر (الصوتي، الصرفي، المعجمي...) الذي يلحق فروع الفصيلة الواحدة بالنظر إلى اللغة الأمّ.

ج) من الثنائيات التي قامت عليها اللسانيات الحديثة منذ سوسير ثنائية "التزامن" (السانكرونية)/ "التعاقب" (الدياكرونية). على أساس هذه الثنائية، قام التمييز بين نوعين اثنين من اللسانيات، "لسانيات تزامنية" و"لسانيات تعاقبية"، لسانيات تتناول اللغة، بوصفها نسقا متكاملا، في حقبة معينة و"لسانيات تعاقبية" تدرس متغيرات هذا النسق عبر مراحل تطوره.

اللافت في هذا الصدد تحول موضوع الدراسة التطورية من ظواهر بعينها إلى نسق لغوي كامل حيث أصبح التعاقب تعاقب تزامنات متتالية.

د) انتقل الاهتمام بالبعدين التقاربي والتطوري تدريجيا إلى النظريات اللسانية الحديثة نفسها إلى جانب البعد الوصفي - التفسيري سواء أكانت هذه النظريات نظريات بنيوية أم نظريات توليدية - تحويلية أم نظريات وظيفية.

في هذا التوجه، جعلت نظرية النحو الوظيفي (التي نشتغل في إطارها) من أهدافها الكبرى إحداث ما أسمته "الكفاية النمطية"، الكفاية التي تحصّلها النظرية اللسانية حين تكون قادرة على وصف وتفسير ظواهر لغات تنتمي إلى أكبر عدد ممكن من الأنماط اللغوية.

تسنى لنا، منذ بضع سنين، أن نسهم في نمذجة نظرية النحو الوظيفي، فصغنا نموذجا أسميناه نحو الطبقات القالبي" (المتوكل (2003)) تضمن تنميطا للغات ورصدا لتطورها يقومان على مفهوم "التغليب" بين التداول والدلالة يميز بين اللغات "الموجَّهة تداوليا" واللغات "الموجَّهة دلاليا".

مع الاحتفاظ بروح مفهوم التغليب هذا، نودّ أن نقترح هنـــا، في إطار أحدث نماذج نظرية النحو الوظيفي، نمـــوذج "نحـــو الخطـــاب الوظيفي"، مقاربة تقوم على مبـــدإ "الانعكـــاس البنيـــوي" وتعتمـــد الأطروحات الأساسية التالية:

أولا، ليس من الضروري أن تُوكَل مهمّتـــا المقارنـــة والتـــأريخ لدراسات لغوية مستقلة قائمة الذات كما كان الشأن في السابق، بل إن الضروري هو أن تضطلع النظريات اللسانية نفسُها بهاتين المهمتين؛

ثانيا، يتعيّن على كلّ نظرية لسانية، أيّا كانت، أن تُعدَّ وتُصـــاغ على أساس أنها مطالبة لا بالوصف والتفسير فحسب بل كذلك بتنميط اللغات ورصد تطوّرها؛

ثالثا، أوردُ معيار للتنميط هو معيار بنية اللغات بغض النظر عـــن الفصيلة السلالية التي تنتمي إليها هذه اللغات؛

رابعا، البنية مستويات أربعة: تداول ودلالة وصـــرف-تركيـــب وأصوات وإن كان المستويان الأخيران يشكلان عادة المحط الأســـاس للاختلاف بين اللغات؛

خامسا، ليس المطلوب من النظرية اللسانية الاضطلاع بتنمـــيط اللغات وَفق خصائصها البنيوية فحسب بل المطلـــوب منـــها كـــذلك التكفّل بتنميط الخطابات وفقا لنفس الضرب من الخصائص؛

سادسا، دور بنية اللغة مهما بلغت أهميته لا يُلغي دور الســـياق (بمفهومه الواسع) في تحديد النمط اللغوي والنمط الخطابـــي وفي مسار تطورهما.

ليس من مطامحنا أن نقارن بين لغات معيّنة ولا أن ندرس تطورها لغة لغة. إن ما نطمح إليه بالدرجة الأولى هو رَوْزُ مـــدى ورود مبـــدإ الانعكاس البنيوي ومدى إجرائيّته في الوصول إلى تعميمات دالة عـــن

التنميط والتطور وأهمية هذه التعميمات، إن صحّت، بالنظر إلى مجالات اجتماعية حيويّة كالترجمة وتعليم اللغات.

والله ولي التوفيق

الرباط، 8 يوليه 2011

الفصل الأول

الانعكاس البنيوي

0. مدخل:

اختلفت المعايير التي استُخدمت في المقارنة بين اللغات من القرابة السلالية إلى التآسر البنيوي مع اختلاف في الخصائص البنيوية أيها اعتمادها أورَدُ.

نبسط القول هنا في ما سُمي في "نحو الخطاب الوظيفي" (هنخفلد وماكنزي (2008)) "الانعكاس البنيوي" مشفوعا بالسياق (بمختلف أصنافه ومكوناته) تمهيدا لمناقشة مدى إجرائيته في الفصول اللاحقة.

1. من الفصيلة إلى النمط

1.1. السلالة/البنية

بدأت المقارنة بين اللغات بالسعي، كما هو معلوم، في تصنيف اللغات وتجميعها في فصائل (أو"أُسَر") تنحدر من نفس اللغة الأم. من المنظور السلالي هذا، قسّمت اللغات إلى لغات سامية (منها اللغة العربية) ولغات لاتينية (أو رومانية) كاللغات الفرنسية والإسبانية والإيطالية والرومانية ولغات سلافية ولغات أنكلوساكسونية كاللغتين الألمانية والأنجليزية. كما جمعت الفصائل الثلاث الأخيرة في فصيلة كبرى تعلوها سمّيت اللغات الهندية-الأوروبية إلى جانب لغات أخرى.

في العقود الأخيرة من القرن العشرين، حدث تحول جـذري في اللسانيات المقارنة من حيث مجال المقارنة ومعيارها حيث عُـدِل عـن القرابة السلالية إلى القرابة البنيوية. من هذا المنظور، أصبحت اللغـات تصنّف "أنماطا" على أساس تآلفها من حيث خصائصها البنيوية، بغض النظر عن انتمائها السلالي.

في هذا التوجه (الذي يطلق عليه "اللسانيات النمطية")، لم يعـد هناك تقاطع بالضرورة بين الانتماء السلالي والانتماء النمطـي. دليـل ذلك إمكان إدراج لغتين مختلفتين "سلاليا" في نفس الخانـة النمطيـة كالجمع بين اللغة العربية ولغات أوروبّية باعتبارها لغات "فاعليـة" في مقابل اللغات "المبتدئية" كاللغة الصينية مثلا[1].

2.1. أي بنية للتنميط؟

يُقصَد بالبنية عامة، للتذكير، مجموعةٌ من الوحدات (أو مكونات) تربط بينها علاقات معيّنة، إما علاقات "ترادف" ("معاقبة") أو علاقات "تراكب".

أما من حيث طبيعتها فإن البنية يمكن أن تكون إمـا صـرفية-تركيبية أو فونولوجية أو دلالية أو تداولية.

ويختلف التمثيل لهذه البنيات الأربع باختلاف الأطـر النظريـة اللسانية من حيث الصياغة ومن حيث الموقع[2].

(I) فمن حيث الصياغة، يُمثَّل في نظرية النحـو الـوظيفي لبنيـات الجملة(1) الأربع المبسَّطة على النحو التالي:

(1) شرب عليٌّ شاياً صباحاً في المقهى

(2) بنية دلالية ("بنية حملية"):

(قضية1: [(واقعة1: [(محمول1: (شرب)

(موضوع1: علي) (موضوع2: شاي)

(لاحق1: صباح) (لا حق2: مقهى)]

(واقعة1))] (قضية 1))

(3) بنية تداولية

(فعل خطابي 1: [قوة إنجازية (ك) (ط)

(فحوى خطابي 1: [(فعل إحالي1) (فعل إحالي2) (فعل إحالي3) (فعل إحالي 4)(فعل حملي1)]

(فحوى خطابي 1))] فعل خطابي 1))

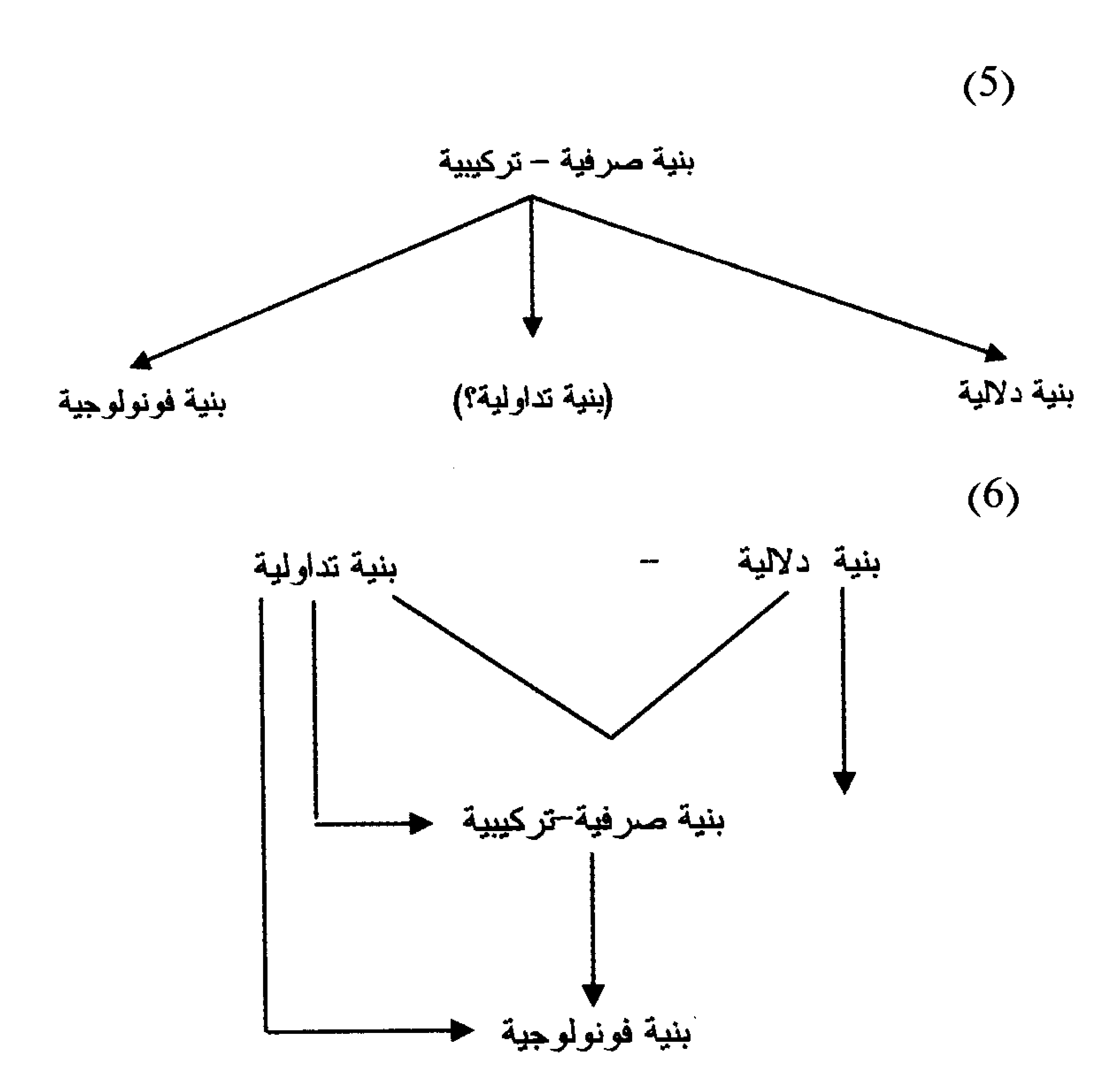
(4) بنية صرفية-تركيبية

(جملة1: [(مركب فعلي1: شرب)(مركب اسمي1: عليٌّ) (مركب اسمي2: شاياً) (مركب اسمي3: صباحاً)(مركب اسمي4: في المقهى)](جملة1))

(II) أما من حيث تموقع البنيات الأربع داخل "النموذج" (الجهاز الواصف) فلا يُجادَل في سطحية البنية الفونولوجية. ويظل الخلاف قائما بين التيار اللساني "الصُّوري" والتيار اللساني الموجَّه وظيفيا (أو تداوليا). تقوم، في التيار الأول، البنيتان الدلالية (والتداولية إن هي وجدت) بدور "تأويل" بنية صرفية-تركيبية (عميقة أو سطحية أو هما معا)[3]، في حين أنهما يشكّلان في التيار الثاني بنية تحتية تنقل بواسطة قواعد "ترجمة" إلى بنية صرفية-تركيبية وبنية فونولوجية.

(III) بيان هذا الفرق في توزيع البنيات الأربع داخل النموذج في الترسيمتين العامتين التاليتين:

(5)



ولعل من الوارد لفت النظر إلى أن الترسيمة (6) تطابق نموذج إنتاج الخطاب في حين تطابق الترسيمة(5) نموذج تلقّيه.

3.1. التنميط الأحادي/التنميط المتكامل

التوجه الغالب في اللسانيات التي عُنيت بالمقارنة هو التوجه الذي ينطلق من أن موطن الائتلاف بين اللغات وخاصة الاختلاف بينها هو الصرف والتركيب. لهذا كان انصباب البحث التقاربي على البنية الصرفية-التركيبية بالأساس.

من هذا المنظور، صنّفت اللغات إلى "لغات مبتدئية" و"لغات فاعلية"، تصنيفا يقوم على أن المكون "المبتدأ" في الفئة الأولى من اللغات

لا يحتاج إلى ضمير يربطه بالجملة الواردة بعده. يشهد على ذلك المثال الصيني التالي:

(7) Nuike shu yezi da

كبيرة الأورا اق الشجرة هذه

"هذه الشجرة، أوراقها كبيرة"

تعد اللغة العربية من اللغات الفاعلية (غير "المبتدئية")، شأنها في ذلك شأن اللغتين الأنجليزية والفرنسية، أي اللغات التي يعود فيها ضمير رابط على المكون المبتدإ وجوبا. قارن بين طرفي الأزواج الجملية التالية:

(8) أ- هذا الكتاب ألفه خالد

ب-*هذا الكتابُ أَلَّفَ (ϕ) خالد

(9) أ- This book, khalid wrote it

ب- *This book, khalid wrote (ϕ)

(10) أ- Ce livre, khalid l'a écrit

ب- *Ce livre, khalid (ϕ) a écrit

ويشذ عن قاعدة وجوب الربط الضميري هذا في العربية بضع تراكيب معدودة ولا إنتاجية لها مثل التركيبين التاليين:

(11) أ- زيد، العين بصيرة واليد قصيرة

ب- البُر، الكَرُّ بِستِّين

من نفس المنظور، صنفت اللغات من حيث ترتيب المكونات داخل الجملة أصنافا تحقق البنيات الموقعيّة التالية:

(12) أ- فعل - فاعل - مفعول

ب- فاعل - فعل - مفعول

ج- مفعول - فاعل - فعل

د- فاعل - مفعول - فعل

هـ- مفعول - فعل - فاعل

- فعل - مفعول - فاعل

حسب المعيار الرتبي هذا، تكون اللغة العربية"[4] من فئة اللغات ذات البنية الموقعية (12أ).

إن للتنميط الصرفي -التركيبي مزايا أهمها ثلاث: **أولاها**، أنه يتيح رصد تآسرات بنيوية دالة بين لغات تنتمي سلاليا إلى فصائل لغوية مختلفة **وثانيتها**، أن أساس المقارنة بنيات صرفية-تركيبية لا مجرّد وحدات منفردة **وثالثتها**، أن مكمن الاختلاف بين اللغات الخصائص الصرفية - التركيبية أكثر من غيرها من الخصائص.

مع ذلك، يظل هذا الضرب من التنميط قاصرا عن أن يفي بالمطلوب لأسباب أهمها ما يلي:

(i) أن نقول إن الاختلاف بين اللغات أكثره اختلاف صرفي - تركيبي لا يعني بالضرورة أن هذا الاختلاف غير وارد في البنية الدلالية والبنية التداولية وأن هاتين البنيتين لا تتضمنان من حيث طبيعتهما إلا سمات كلية. من أمثلة خصوصية السمات التداولية والدلالية ونسبيّتها أن كل لغة (أو كل نمط من اللغات) تنتقي داخل حزمة السّمات الإحالية الإشارية[5] ("قريب" "بعيد"، "متوسط"، "أعلى"، "أسفل"، "يمين"، "شمال"...) سمات معينة دون أخرى. فاللغة العربية، مثلا، تأخذ من تلك الحزمة الإحالية سمات ثلاثا هي "قريب" و"متوسط" و"بعيد" تتحقق في الأدوات الإشارية "هذا"/"هنا" و"ذاك"/"هناك" و"ذلك/"هنالك" على التوالي، في حين أن اللغة الأنجليزية لا تنتقي إلا السّمتين القطبيتين "قريب"/"بعيد" (this/here Vs that/there). ومن أمثلة ذلك أيضا أن اللغات

تتباين من حيث انتقاؤها للسمات الزمنية وبذلك تختلف الأنساق الزمنية الفعلية اتساعا من لغة إلى لغة. ونفس الأمر يصدق على السمات الجهيّة.

(ii) إن الاختلافات التي تُلحظ في المستوى الصرفي-التركيبي ليست في الواقع، في عمومها، إلا **انعكاسات** لاختلافات تداولية أو دلالية. دعنا نأخذ للتمثيل لذلك ترتيب المكونات داخل الجملة في اللغة العربية حيث يمكن أن تتحقق لا البنية الموقعية (12أ) فحسب كما في الجملة (13أ) بل كذلك البنيات الموقعية (12هـ -و) كما في الجمل (13 ب-ج):

(13) أ - ساعد عليٌّ مُنى

ب- مُنى ساعد عليٌّ

ج- ساعد منى عليٌّ

يتبين من فحص الأمثلة (13 أ-ج) ثلاثة أمورٍ هامة هي:

أولا، أن الرتبة ليست اعتباطية ولا محايدة (حتى بالنظر إلى الرتبة في البنية الموقعية (12أ)) خلافا للاعتقاد السائد بل هي تحقيق لسمات تداولية. فالمكون "منى" على سبيل المثال "بؤرة جديد" في التركيب (13أ) و"بؤرة مقابلة" في التركيب (13ب) و"محور" في التركيب (13ج)؛

ثانيا، أن التمييز المعتاد إقامته بين "اللغات ذات الرتبة المحفوظة" و"اللغات ذات الرتبة الحرة" (اللغات الإعرابية) لا سند له إذا سلّمنا بأن جميع الرتب محفوظة تداوليا"؛

ثالثا، أن ورود اعتماد الرتبة وحدها معيارا لتنميط اللغات يصبح محط تساؤل.

مقاربتان اثنتان 'إذن' لتنميط اللغات: "**مقاربة أحادية**" تعتمد بنية واحدة، البنية الصرفية - التركيبية و"**مقاربة متكاملة**" (أو "مندمجة" بلغة

العصر) تعتمد البنيات الصرفية-التركيبية والتداولية والدلالية والفونولوجية أربعَها وما يقوم بينها داخل الجهاز الواصف من تعالق، على اعتبار البنيتين التداولية والدلالية مستويين لبنية واحدة تحتية تنقل إلى بنية سطحية من مستويين: مستوى صرفي - تركيبي ومستوى فونولوجي.

من المقاربة المتكاملة المتعددة المستويات هذه، ما وضعناه في إطار نموذج لنظرية النحو الوظيفي أسميناه آنذاك (المتوكل (2003)) "نحو الطبقات القالبي" نموذج أساسه المنطلقات التالية:

1) بنية الخطاب النموذجية بنية ذات مستويات خمسة هي "المستوى البلاغي" و"المستوى العلاقي" و"المستوى التمثيلي" (الدلالي) عمقا والمستويان الصرفي-التركيبي والفونولوجي سطحا باعتبار المستويين الأوّلين شقين لبنية تداولية؛

2) الفرق بين اللغات كامن في ما أسميناه "**التغليب**"، تغليب مستوى على مستوى أو طبقة على أخرى من نفس المستوى. أفضى مفهوم التغليب إلى تصور علاقات الائتلاف وعلاقات الاختلاف بين اللغات في شكل متوالية قطباها لغات موجهة تداوليا ولغات موجهة دلاليا، وبين هذين القطبين لغات تختلف باختلاف قربها وبعدها من التوجه التداولي أو التوجه الدلالي.
حسب هذا المنظور تكون اللغة العربية الفصحى من اللغات الموجهة تداوليا باعتبار غناها من حيث السمات التداولية (القوى الإنجازية، الوظائف التداولية، الإحالة، النداء وفروعه...)؛

3) يُرصَد التطور اللغوي في هذا النموذج على أساس أنه انتقال من القطب الأول إلى القطب الثاني، انتقال لغة ما من التوجه التداولي إلى التوجه الدلالي. من ذلك انتقال لغة إعرابية إلى لغة رتبيّة

كانتقال اللغة اللاتينية إلى فروعها (الإيطالية والإسبانية والفرنسية والرومانية) مثلا.

ومن المقاربة المتكاملة أيضا ما يتيحه نموذج "نحو الخطاب الوظيفي" وهو ما نبسط القول فيه في المبحث اللاحق.

2. النمذجة في نظرية النحو الوظيفي

1.2. نحو الخطاب الوظيفي: تذكير

تنقسم النظريات اللسانية من حيث موقفها من علاقة بنية اللغة بوظيفتها قسمين: نظريات "صورية" (وأشهرها النظرية التوليدية-التحويلية) لا تؤمن بأن للغة وظيفة معينة أولا تؤمن- على الأقل- بجدوى أخذ الوظيفة بعين الاعتبار في التنظير اللساني، ونظريات "وظيفية" تنطلق من مبدأين منهجيين أساسيين: تأدية اللغة لوظيفة التواصل وارتباط بنية اللغة بوظيفتها هذه ارتباط "تبعية". تندرج في الفئة الثانية من النظريات "نظرية النحو الوظيفي"(دِكْ (1978) و(1989) و(1997 أ-ب) وآخرون).

نحيل القارئ على مبادئ النظرية الوظيفية "المثلى" التي حصرناها في مكان آخر (المتوكل (2006)) في عشرة مبادئ أولى. أما هنا فإننا نلخصها مكيفين إياها مع مبدإ الانعكاس على النحو التالي:

(14) المنطلق الأول

«تُستخدم اللغات لتأدية وظائف متعددة مختلفة إلا أن هذه الوظائف فروع **لوظيفة أصل** هي **وظيفة التواصل**».

في إطار المنطلق (14) يمكن أن نفهم وظائف هاليداي (هاليداي(1970)) الثلاث (الوظيفة "التمثيلية" والوظيفة "العلاقية" والوظيفة "النَّصِّية") على أساس أنها مجرد جوانب لوظيفة التواصل. نفس

التأويل يمكن أن يصح حين يتعلق الأمر بوظائف جاكبسون (جاكبسون (1966)) الست حيث الوظيفة المرجعية (الإحاليّة) والوظيفة التعبيرية والوظيفة الأمرية والوظيفة الشِّعرية والوظيفة اللّغوية (بسكون الغين) والوظيفة الميتالغوية تتضافر كلها وإن بدرجات متقاربة تفاوت أنماط الخطاب في نفس العملية التواصلية(6).

(15) المنطلق الثاني

«تنعكس الوظيفة إلى حد بعيد في بنية اللغة».

إذا كانت الوظيفة أولا **رسالة** مرادًا تبليغها وثانيا **قصدًا** يثوي خلف الرسالة وكانت البنية وحدات معجمية وصرفية تنتظمها علاقات تركيب تتحقق في شكل متوالية صوتية فإن البنيتين الدلالية والتداولية تنعكسان في البنيتين الصرفية - التركيبية والفونولوجية إلا في حالات يمكن أن تُعدَّ استثناءات تستقل فيها البنية عن الوظيفة. يَصدُق هنا ما قلناه عن الأمثلة (13 أ-ج) الآنف سوقها.

(16) المنطلق الثالث

«يَحكُم ترابطُ التبعية القائم بين الوظيفة والبنية وانعكاس الأولى في الثانية:

أ- عملية اكتساب اللغة

و ب- انقسام اللغات إلى أنماط

و ج- مسلسل التطور اللغوي».

مفاد الشق الأول من المنطلق (16) أن المبادئ الفطرية التي تؤطر عملية اكتساب اللغة والتي تشكل "كليات لغوية" (أو "نحوا كلّيا") مبادئ تربط بنية اللغة بوظيفتها كما أن مفاده أن الطفل أثناء تعلمه للغة يكتسب بالتدريج بنيات لغوية مشفوعة بما تؤديه من وظائف، أي من أغراض تواصلية.

مثال ذلك أن الطفل لايكتسب البنيات الموقعية العربية (13 أ-ج) بوصفها مجرد تقاليب لنفس البنية بل باعتبارها تراكيب تؤدّي ثلاثة أغراض تواصلية مختلفة: إخبار بجديد وتصحيح لمعطى غير وارد واهتمام بذات دون غيرها على التوالي.

بتعبير آخر، ما يُكتسب أثناء تعلم لغة ما ليس "قدرة لغوية" صرفا بل "قدرة تواصلية" تمكن الطفل من معرفة "أوضاع اللغة" معجما وصرفا وتركيبا وكذلك من معرفة استخدام هذه الأوضاع في إنتاج خطابات متعددة متباينة الأنماط.

ويفاد من الشقين (ب) و(ج) من نفس المنطلق أن اللغات تتنامط وتتباين طبقا لوسائل تحقق انعكاس الوظيفة في البنية ودرجاته، كما أنها تتطور وفقا لما يطرأ من تغيير على ذلك الانعكاس من نمط إلى نمط أو داخل نفس النمط اللغوي عبر المراحل التطورية.

سنُفصل القول في دور الانعكاس معيارا للتنميط ورصدِ التطور في الفصول الموالية.

تُعرَّف كل نظرية لسانية وتتميز عن غيرها بثلاثة ثوابت: **منطلقاها وأهدافها والمنهج** الذي تعتمده والذي يتمثل خاصة في **النموذج** الصوري الذي تصطنعه لمقاربة الواقع اللغوي المروم وصفه وتفسيره.

وتكون النظرية **منسجمة** انسجاما لا يشوبه تناقض أو خلل حين يحصل التوافق بين النموذج والمنطلقات والأهداف. لنعرض أولا للأهداف ثم بعدها لمختلف **النمذجات** المقترحة.

تسعى نظرية النحو الوظيفي منذ نشأها (دِكْ (1978)) في تحقيق **الكفاية التفسيرية** التي تجعلها ثلاث كفايات: **الكفاية التداولية والكفاية النفسية والكفاية النمطية.**

1) تماشيا مع المنطلقين (14) و(15)، تروم نظرية النحو الوظيفي إحراز الكفاية التداولية التي تفرض عليها أن تستكشف خصائص العبارات اللغوية المرتبطة بكيفية **استعمال** هذه العبارات وأن يتم هذا الاستكشاف في إطار علاقة هذه الخصائص بالقواعد والمبادئ التي تحكم التواصل اللغوي (دكْ (1997أ: 13))؛

2) وتماشيا مع المنطلق(16أ)، تستشرف نظرية النحو الوظيفي تحصيل الكفاية النفسية التي تقتضي من النحو الوظيفي الذي يروم الوصول إلى الكفاية النفسية أن **يعكس** بطريقة أو بأخرى ثنائية الانتاج/الفهم (دك (1997 أ: 13))، أن يكون بتعبير آخر مطابقا لنماذج الإنتاج التي تحدد كيف **يبني** المتكلم العبارات اللغوية **وينطقها** ومطابقا لنماذج الفهم التي تحدد كيفية **تحليل** المخاطب للعبارات اللغوية وتأويلها؛

3) وانسجاما مع المنطلق (16ب) تستهدف نظرية النحو الوظيفي إحراز الكفاية النمطية التي تتطلب منها أن تكون قواعد النحو بالغة أكبر قدر من التجريد لكي تنطبق على أكبر عدد من اللغات، وأن تكون في نفس الوقت أقرب ما يمكن القرب من الوقائع اللغوية.

هذه التعريفات للكفايات الثلاث هي التعريفات الواردة في النحو الوظيفي "المعيار" (دك (1997 أ-ب)) قبل أن نقترح إدخال التعديلات التالية عليها (المتوكل (2011)):

أولا، يجدر بالنظرية الوظيفية أن تحصّل لا الكفاية التداولية اللغوية الصرف فحسب بل كذلك "الكفاية التواصلية" بوجه عام. بتعبير آخر، عليها أن تُبنى وتصاغ بالشكل الذي يجعلها قابلة للاندراج في ما يمكن

تسميته "النظرية الوظيفية العامة" التي تشمل جميع أنساق التواصل اللغوية منها وغير اللغوية (الاشارية، الصورية...).

إذاك يصبح من الممكن أن يفاضل بين النظريات ذات التوجه الوظيفي (أو التداولي) على أساس قابليتها للاندراج في نظرية التواصل العامة هذه.

ثانيا، يتعين أن ينضاف، إذا أردنا أن نرصد بكيفية أشمل وأدق العمليات التي يستطيع أن يقوم بها مستعمل اللغة الطبيعية، إلى نماذج الإنتاج والفهم نماذج أخرى يمكن أن نسميها "نماذج التحويل". هذه النماذج تحدد الكيفية التي يحول بها المتكلم خطابا ما إلى خطاب آخر من لغة[7] إلى لغة أو داخل نفس اللغة أو من نسق تواصلي إلى نسق تواصلي آخر (من اللغة إلى الإشارة أو الرسم أو عكس ذلك).

بهذا يصبح إحراز الكفاية النفسية رهينا بمدى مطابقة قواعد النحو الوظيفي لنماذج الإنتاج ونماذج الفهم ونماذج التحويل (حين يتعلق الأمر بعمليات نقل كالترجمة والشرح والتفسير سواء أكانت هذه العمليات تنحصر داخل اللغة أم كانت تتعداها إلى أنساق تواصلية أخرى).

ثالثا، من مهام النظرية الوظيفية الساعية في تحصيل الكفاية النمطية أن تُعنى لا بالمقارنة بين اللغات وتنميطها فحسب بل كذلك بالمقارنة بين الخطابات وإرجاعها إلى أنماط خطابية حسب معايير معينة. سنعود إلى موضوع توسيع مفهوم التنميط بهذا النحو لاحقا.

رابعا، قبل اقتراح هذه التعديلات وموازاة لها طرحنا للنقاش (المتوكل (2006) و(2011)) مشكلة إضافة كفاية رابعة اصطلحنا على تسميتها "الكفاية الإجرائية". نقصد بالكفاية الإجرائية أن يكون في

مقدور النظرية المحرزة للكفايات الثلاث أن تلج قطاعات اجتماعية - اقتصادية تحضر فيها اللغة بشكل من الأشكال كتحليل النصوص بجميع مجالاتها (نصوص قانونية، سياسية، تجارية...) والترجمة بمختلف أنماطها[8] (البينية والعينية والأنساقية) وتعليم اللغات والاضطرابات النفسية - اللغوية.

مما يجب لفت النظر إليه بهذا الصدد أن كلا من هذه التعديلات والإضافات يستلزم أن تكون النظرية مستعدة للاضطلاع به مبادئَ ومنهجاً وآلياتٍ على أحسن وجه.

دعنا الآن نمر إلى مسألة صياغة النماذج في نظرية النحو الوظيفي.

سبق أن أشرنا إلى أن النموذج في النظريات اللسانية تمثيل مُصَوْرِنٌ للواقع اللغوي المروم رصده ووصفه وتفسيره. والنموذج في نظرية النحو الوظيفي هو "نموذج مستعملي اللغة الطبيعية"، نموذج لقدرات المتكلم - المخاطب اللغوية وغير اللغوية والمعارف التي يستخدمها في عمليتي إنتاج الخطاب وفهمه.

أفرزت نظرية النحو الوظيفي منذ نشأتها وخلال تطورها مجموعة من النماذج هي: "النموذج النواة" ("النموذج ما قبل المعيار") (دك (1978)) و"النموذج المعيار" (دك (1997 أ-ب)) و"النحو الوظيفي المتنامي" (ماكنزي (1998)) و"نحو الطبقات القالبي" (المتوكل (2003)) و"نحو الخطاب الوظيفي" (هنخفلد وماكنزي (2008)) و"نحو الخطاب الوظيفي الموسع" (المتوكل (2011)).

محرك إفراز هذه النماذج والانتقال من بعضها إلى بعض مع جَبٍّ متفاوتٍ في الشكل والمضمون محركان أساسيان: تعديل في

موضوع الدرس واتجاه نحو رفع سقف الأهداف مع الحفاظ على المنطلقات النظرية والمنهجية (المنطلقات (14) و(15) و(16) ضمن منطلقات أخرى).

كانت نظرية النحو الوظيفي منذ نشأها نظرية مؤسسة تداوليا تتخذ موضوعا لها الملفوظ/المكتوب مؤطرا بظروف إنتاجه (سياقه) وفقا للترسيمة (17):

(17) [سياق [α]]

حيث α = جملة

التطور الذي حصل بالنظر إلى موضوع الدرس هو انتقال الوحدة الدنيا للخطاب من الجملة إلى "الفعل الخطابي" (قوة إنجازية + فحوى) سواء أكان الفعل الخطابي جملة أم نصا كاملا أم مركبا اسميا أم مفردة، شريطة أن تشكل هذه المقولات وحداتٍ تواصلية قائمة الذات. بهذا الانتقال في الوحدة الخطابية الدنيا تصبح الترسيمة (17) الترسيمة التالية:

(18) [سياق [α]]

حيث α = / نص / جملة / مركب اسمي / مفردة

استدعى هذا التعديل الذي حصل في موضوع الدرس إعادة النظر في طبيعة ومقومات البنية التداولية حيث أصبح يمثل لها باعتبارها فعلا خطابيا (= "فعلا لغويا" في مصطلح سورل (سورل (1969)) قوامه قوة إنجازية ومتكلم ومخاطب وفحوى خطابي يتضمن فعلا إحاليا وفعلا حمليا كما يتبين من الترسيمة (19):

(19) (فعل خطابي1: [قوة إنجازية (ك) (ط)

(فحوى خطابي 1: [(فعل إحالي1)

(فعل حملي1)]

(فحوى خطابي1))] (فعل خطابي1))

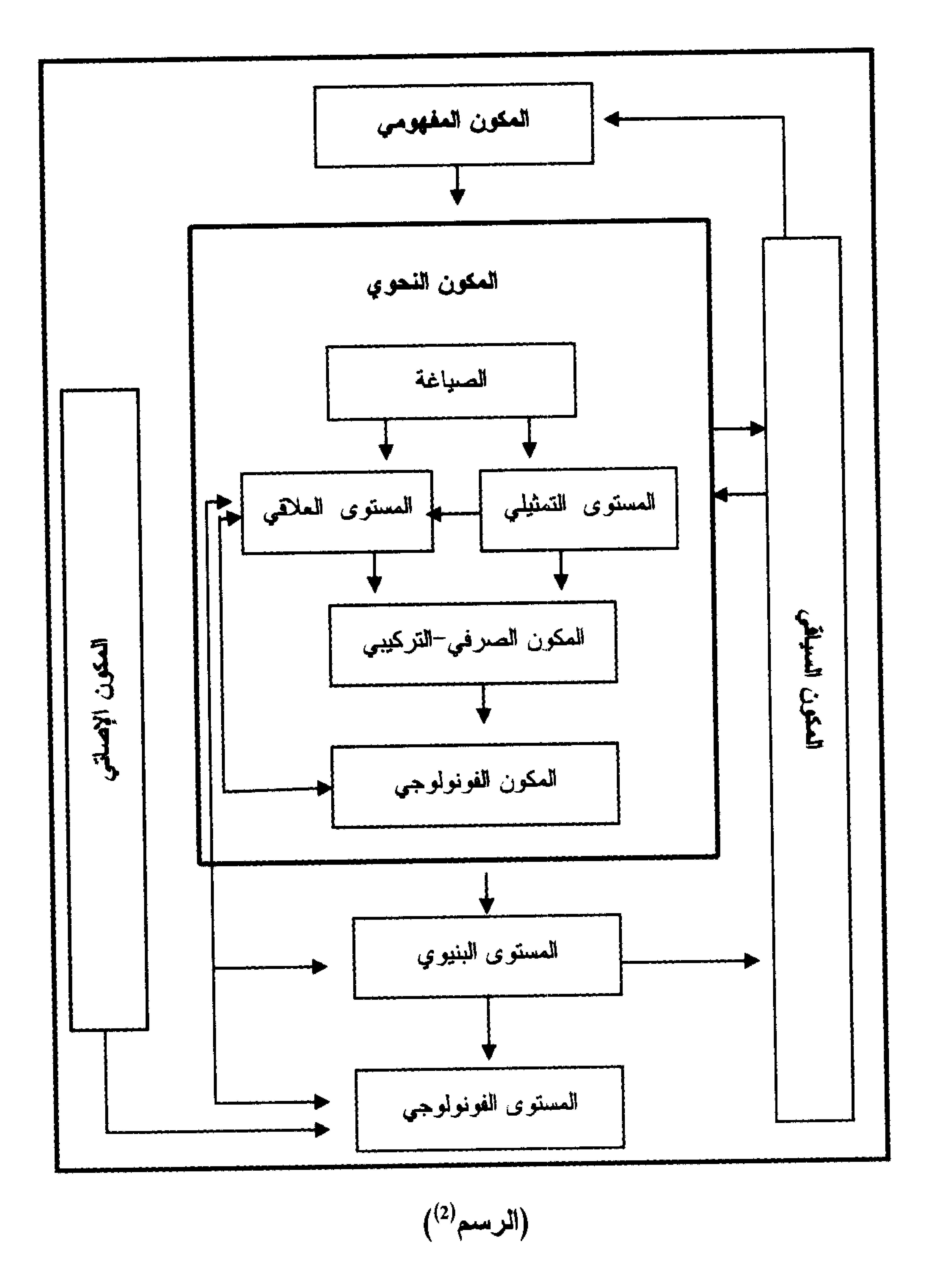
أما رفع سقف الهدف الكفائي فقد اقتضى، بالنظر إلى النمذجة، الأمرين الهامين التاليين:

أولا، ضمانا لإحراز أكبر قدر ممكن من الكفاية التداولية، تم فصل البنية التداولية عن البنية الدلالية وإن كانتا معا تشكلان نفس البنية التحتية التي تنقل إلى بنية صرفية - تركيبية وبنية "فونولوجية"؛ ويجدر التنبيه بهذا الصدد إلى أن البنية "التداولية" تعد "أعمق" من البنية الدلالية مصداقا للمبدإ القائل إن القصد "أسبق" من الفحوى (ليڤلت (1978)).

ومن السعي في تقوية الكفاية التداولية كذلك موقعة المكون السياقي داخل النموذج باعتبار أنه يشكل مع المكون المفهومي (المكون المعرفي) مكونين "مصاحبين" خارجين عن المكون النحوي لكنهما ضروريان لاشتغاله.

من نتائج التطورات الحاصلة في موضوع الدرس وفي سقف الكفاية التداولية وضع نموذج "نحو الخطاب الوظيفي"، نموذج قوامه مكون مركزي هو المكون النحوي وثلاثة مكونات مصاحبة هي المكون المعرفي ("المفهومي") والمكون السياقي والمكون -الخرج ("الإصاتي") كما توضح ذلك الترسيمة (20):

(20) نموذج نحو الخطاب الوظيفي (إنتاج):



(الرسم[2])

يتبين من الترسيمة (20) أن الأسبقية للتداول على الدلالة ولهما معا على الصرف والتركيب والصوت وهو الترتيب الذي يعكس عملية إنتاج الخطاب حيث إن المتكلم ينطلق من **القصد** إلى **الفحوى** ثم إلى **النطق**[9].

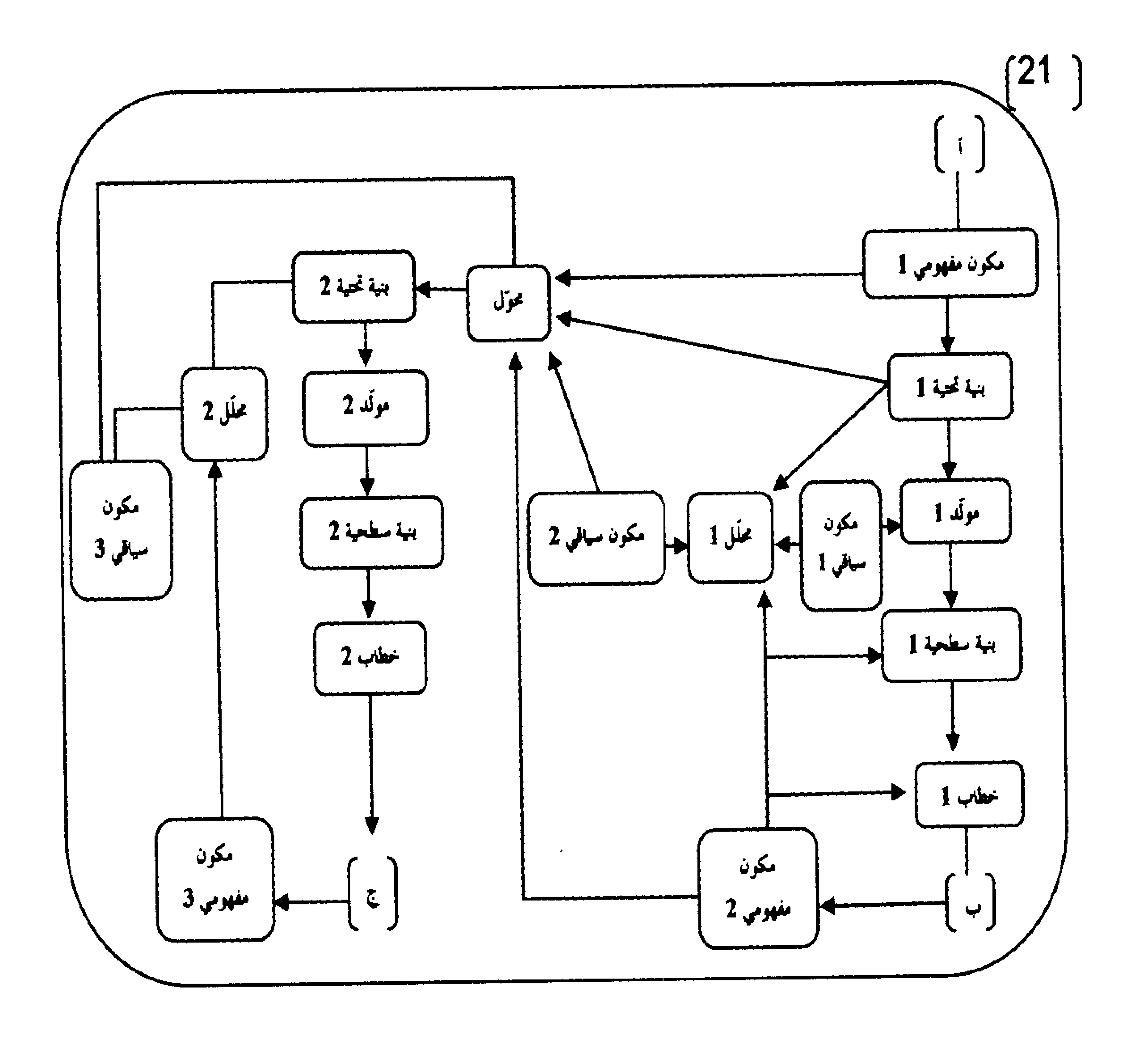
بهذا يكون "نحو الخطاب الوظيفي" نموذجا ناقصا من حيث الكفاية النفسية التي مر بنا أنها تقتضي التمثيل لإنتاج الخطاب وفهمه بوصفهما وجهين لعملية تواصلية واحدة. في هذا الصدد يذهب هنخفلد وماكنزي (هنخفلد وماكنزي (2008)) إلى أن النموذج الموضح في الترسيمة (20) قابل لأن يضطلع بالتمثيل للإنتاج والفهم كليهما إذا ما ازدوج بمعكوسه الذي ينطلق من خرج المكون الإصاتي إلى البنيتين الفونولوجية والصرفية - التركيبية ثم البنية الدلالية فالبنية التداولية (أي المستوى التمثيلي والمستوى العلاقي).

2.2. نحو الخطاب الوظيفي الموسع

في نفس الاتجاه، ودفعا بالسعي في تحصيل المزيد من الكفاية النفسية، اقترحنا إضافة جهاز ثالث أسميناه "مُحَوِّلاً" إلى جهازي الإنتاج والفهم كي نُحَصِّلَ "نحوا خطابيا وظيفيا موسعا" قَمِيناً برصد لا عمليتي الإنتاج والفهم فحسب بل كذلك عملية "النقل"، نقل خطاب ما إلى خطاب آخر ترجمة أو شرحا أو تفسيرا أو غير ذلك. توضيح النموذج المقترح في الترسيمة التالية (المتوكل (2011)):

(21) نموذج "نحو الخطاب الوظيفي الموسع"

[21]



3. مبدأ الانعكاس

تختلف النظريات اللسانية، كما هو معلوم، من حيث تصورها للعلاقة التي يمكن أن تقوم بين المستويات التحليلية (دلالة، تداول، صرف - تركيب، فونولوجيا). ففي النظريات اللسانية "الصورية" يستقل كل من الصرف والتركيب عن الدلالة (وعن التداول إذا هو وجد). وهذا ما سمي في النظرية التوليدية -التحويلية" استقلال التركيب". أما في النظريات اللسانية الوظيفية (وكل نظرية مؤسسة تداوليا) فلا استقلال بين المستويات الأربعة. ويتجلى هذا الفرق بين الفئتين من النظريات في موقع الدلالة والتداول داخل النموذج بالنسبة إلى الصرف والتركيب، إذ إن المستويين الأولين يردان بعد المستويين

الثانيين لمجرد تأويلهما في النظريات الصورية، في حين أن عكس هذا الترتيب هو الوارد في النظريات الوظيفية كما هو الشأن في نحو الخطاب الوظيفي الموضحة بنيته في الترسيمة (20). في الفئة الأخيرة من النظريات يمكن أن نتحدث عن انعكاس البنيتين التحتيتين الدلالية والتداولية في البنيتين الصرفية-التركيبية والفونولوجية-التطريزية على الخصوص (النبر والتنغيم).

إذا صح هذا الافتراض، يمكن أن نعرف الانعكاس بأنه تحقق عناصر مستوى تحليلي ما في عناصر مستوى تحليلي آخر.

1.3. مستويات الانعكاس واتجاهه

يتضمن المكون النحوي في نموذج نحو الخطاب الوظيفي كما يتبين من الترسيمة (20) أربعة مستويات للتحليل: المستوى العلاقي (التداولي) والمستوى التمثيلي (الدلالي) والمستوى الصرفي - التركيبي والمستوى الفونولوجي.

يذهب هنخفلد (هنخفلد (2011 أ،ب)) إلى أن العلاقات بين المستويات الأربعة يمكن أن تقوم بين أي زوج حيث نكون نظريا أمام الإمكانات الستة التالية:

(22) العلاقات الممكنة:

أ - مستوى علاقي - مستوى تمثيلي

ب- مستوى علاقي - مستوى صرفي - تركيبي

ج- مستوى علاقي - مستوى فونولوجي

د- مستوى تمثيلي - مستوى صرفي - تركيبي

هـ-مستوى تمثيلي - مستوى فونولوجي

و- مستوى صرفي - تركيبي - مستوى فونولوجي

يخضع قيام هذه العلاقات بين الأزواج الستة لضابط من ضوابط نظرية النحو الوظيفي وهو ضابط الاتجاه القاضي بانطلاق العلاقة من المستوى السابق إلى المستوى اللاحق لا العكس.

يتبين من الشبكة العلاقية (22 أ-و) أن هنخفلد يقصر الانعكاس على مستويات المكون النحوي الأربعة. ونرى فيما يخصنا أن هذه العلاقة يمكن أن تمتد خارج المكون النحوي وبالخصوص إلى المكون السياقي.

لم يعن بهذا المكون العناية التي يستحقها من حيث الصَّوْرَنَة إلا أخيرا حيث **تفرد** ندوة دولية بمدينة برشلونة (إسبانيا) للسياق وعلاقته بالنحو. في انتظار نتائج هذه الندوة دعنا نعتمد هنا التصور الآتي لمقومات المكون السياقي في نحو الخطاب الوظيفي وكيفية اشتغاله داخل النموذج ككل:

1) يمكن عدُّ المكون السياقي متضمنا لثلاثة مكونات فرعية نصطلح على تسميتها "**السياق العام**" و"**السياق المقامي**" و"**السياق المقالي**" (المتوكل (2011)).

(أ) نعني بالسياق العام الخلفية الاجتماعية - الثقافية للمتخاطبين (جغرافيًّا وطبقيًّا وسنًّا وغير ذلك من المحددات ذات الصلة)؛

(ب) ونقصد بالسياق المقامي مجموعة العناصر المتواجدة في الموقف التواصلي "أثناء عملية التخاطب شريطة أن يكون لها تأثير في هذه العملية إنتاجا وفهما.

ويمكن أن تلخص هذه العناصر في ما يسمى "المركز الإشاري" الذي يتضمن المتكلم والمخاطب والزمان والمكان كما في الترسيمة التالية:

(23) المركز الإشاري:

{ (ك)، (ط)، (زم)، (ملك)}

(ج) أما السياق المقالي فإنه محط رصد وتخزين ما سبق العملية التواصلية من خطاب ملفوظ/مكتوب (وما تلاها كذلك حين الحاجة إليه).

2) للمكون السياقي (بمكوناته الفرعية الثلاثة) في اشتغاله داخل نموذج نحو الخطاب الوظيفي دوران: دور مباشر ودور غير مباشر (أو موسّط).

(أ) يقوم المكون السياقي بدور مباشر حين يتعالق دون واسط بأحد مستويات المكون النحوي الأربعة. هذا التعالق المباشر يمكن أن يحصل بين المكون السياقي وأي مستوى من مستويات المكون النحوي.

من أمثلة ذلك تدخل السياقي المقامي أو السياق المقالي في انتقاء القوة الإنجازية أو الوظائف التداولية (محور، بؤرة...) وتدخل السياق العام في انتقاء الوحدات المعجمية والمكونات الصرفية والتركيبية وفقا للخلفية الاجتماعية- الثقافية لمنتج الخطاب؛

(ب) ويكون دور المكوّن السياقي دورا غير مباشر حين يكون تدخُّله في مستوى من المستويات الأربعة مؤثرا بكيفية من الكيفيات في مستوى آخر. مثال التدخل غير المباشر هذا ما يحصل حين تُنتقى إحدى الوظائف التداولية كالبؤرة مثلا بالنظر إلى المحددات السياقية المقامية (أو المقالية) ثم تُنتقى البنية الصرفية-التركيبية (والبنية النبريَّة) وفقا للوظيفة التداولية الواردة في المستوى العلاقي.

2.3. حيوز الانعكاس ووسائله

الانعكاس كما حددناه أعلاه تحقق عناصر واردة من أحد مستويات المكون النحوي أو من أحد فروع المكون السياقي الثلاثة في مستوى من هذه المستويات.

لنر في ما يلي كيف يتم هذا التحقق.

1.2.3. الانعكاس العلاقي

يشكل المستوى العلاقي في نحو الخطاب الوظيفي، كما مر بنا، فعلا خطابيا يتضمن قوة إنجازية ومؤشري المتكلم والمخاطب وفحوى خطابيا يتضمن فعلا حمليا وفعلا إحاليا كما توضح ذلك الترسيمة (19). للتدقيق يجدر لفت النظر إلى أن كل طبقة من طبقات الفعل الخطابي تحمل مُخَصِّصاً وإلى أن عناصر الفحوى الخطابي تحمل وظائف تداولية (محور، بؤرة...) كما أن الفعل الخطابي برمته يمكن أن يحمل "وظيفة بلاغية" (تعليل، تبيين، نتيجة...).

لنأخذ مثالا الجملة التالية:

(24) أبكرا شكر المديرُ؟

المستوى العلاقي لهذه الجملة هو البنية التحتية التداولية التالية:

(25) (< تقوية > فعل خطابي1: [استفهام (ك) (ط)
(فحوى خطابي1: [(فعل حملي 1) (فعل إحالي 1: بكر) محور
(< معرف / مقيد > فعل إحالي 2) بؤرة]
(فحوى خطابي 1))] (فعل خطابي 1))

العناصر العلاقية المرشحة **للانعكاس** في مستويات أخرى هي مخصص التقوية والقوة الإنجازية الاستفهام ومؤشرا المتخاطبين (ك)

و(ط) والوظيفتان التداوليتان المحور والبؤرة (بؤرة مقابلة بالتحديد) ومخصصا الفعل الإحالي 2 (معرّف / مقيّد).

الواضح أن هذه المعلومات مؤشَّر لها في المكون السياقي ومستمدة منه: فالتقوية تقتضي مقام **التردد** وبؤرة المقابلة تقتضي تواجد ذاتين (بكر وغيره). أما المخصصان الإحاليان (معرّف / مقيّد) فيحددهما مدى إمكان تعرف المخاطب على الذات المحال عليها في مقام التواصل وتتحقق هذه العناصر العلاقية نفسها على الصورة التالية:

1) يتحقق مخصص الإحالة معرف/مقيد في المستوى الصرفي-التركيبي بواسطة الأداة الألف واللام وتتحقق في نفس المستوى الوظيفة التداولية البؤرة بواسطة الرتبة (احتلال المكون "بكرا" الموقع الصدر الثاني بعد الهمزة). أما الهمزة فهي وسيلة التحقق الصرفي لمخصص القوة الإنجازية الاستفهام.
2) وتنعكس بعض المخصصات العلاقية في المستوى الفونولوجي كما هو شأن التقوية. أما النبر والتنغيم فيتضافران والصرفَ والتركيبَ (الرتبة) في تحقيق البؤرة والقوة الإنجازية على التوالي.

2.2.3. الانعكاس التمثيلي

يتضمن المستوى التمثيلي عناصر البنية الدلالية وهي مخصصات المحمول الزمنية والجهية (مضي[10] /حال/ مستقبل، تام / غير تام، مستمر/ متكرّر...) والمحمول ومحلات موضوعاته وما تحمله هذه الموضوعات من وظائف دلالية (منفذ، متقبّل، مستقبل...) ومخصص الحد (مذكر / مؤنث، جمع / مفرد). على هذا تكون البنية الدلالية للجملة (24) البنية التالية:

(26) ()مُضي / تام) (واقعة 1): محمول 1: ش.ك.ر.

() مذكر)س1: مدير) منفذ (س2: بكر) متقبل] (واقعة1)).

أما العناصر الدلالية المبرمجُ انعكاسها في المستوى الصرفي - التركيبي فهي مخصصات المحمول الزمنية والجهية ومخصص الحد والوظائف الدلالية. لنلاحظ بالنسبة إلى المخصصات أنها مستمدة من المكون السياقي وبالتحديد من المركز الإشاري داخل السياق المقامي. أما انعكاس العناصر الدلالية في المستوى الصرفي - التركيبي فيتم عامة بالشكل التالي:

(1) تتحقق مخصصات المحمول في صيغته (ماض / مضارع...) بتضافر مع مخصص الحد (من حيث الجنس ومن حيث العدد)؛

(2) وتتحقق الوظائف الدلالية عن طريق نقلها إلى وظائف تركيبية (فاعل، مفعول...) بالنسبة إلى اللغات التي تستخدم هذه الفئة من الوظائف[11] (كاللغة العربية). حاصل انعكاس عناصر المستوى العلاقي وعناصر المستوى التمثيلي في المستوى الصرفي - التركيبي بنية كالبنية (27) التي هي بنية الجملة (24):

(27) (جملة 1: [(مركب اسمي1: بكرا) (فعل1: شكر) (مركب اسمي2: المدير)]] (جملة1))

تُعد البنية (27) من تحققات الإطار العام للجملة الفعلية في اللغة العربية وهو الإطار (28):

(28) (جملة1: [صدر [بؤرة [فعل1) (مركب اسمي1)... (مركب اسمي ن)]]] (جملة 1)).

ملحوظة: ليس من الضروري أن يتم تحقق العناصر الواردة من المستويين العلاقي والتمثيلي في المستوى الصرفي - التركيبي دفعة

واحدة. ففي لغات كاللغة العربية الفصحى (واللغة العربية الفصيحة) ثمة مرحلتان:

أولاهما إسناد الوظيفتين التركيبيتين الفاعل والمفعول إلى المكونين الحاملين للوظيفتين الدلاليتين المنفذ والمتقبل (أو المستقبل) **وثانيتهما** إسناد إعرابي الرفع والنصب للمكون الفاعل والمكون المفعول على التوالي. بل يمكن أن نفترض مرحلة ثالثة إذا ما نحن ميزنا بين **الحالة الإعرابية** (رفع، نصب) **والعلامة الإعرابية** (ضم، فتح). من هذا المنظور، تُسند الحالة الإعرابية أولا ثم العلامة الإعرابية ثانيا باستثناء المكونات التي لا تظهر عليها العلامة الإعرابية (المقصور، المنقوص...).

3.3. طُرق الانعكاس ودرجاته

يسلك تحقق عناصر مستوى ما في مستوى آخر يسفله مسلكين أن يكون "شَفَّافاً" أو "كاتما" (المتوكل (2005)). تتحقق العناصر المرشحة للانعكاس تحققا شَفَّافاً حين ينعكس كل عنصر من المستوى المصدر في عنصر من المستوى الهدف. بتعبير آخر، يكون الانعكاس شَفَّافاً حين يُفرَد للعنصر الوارد من المستوى المصدر (مستوى علاقي، مستوى تمثيلي...) عنصر في المستوى الهدف يطابقه ويخصه دون غيره.

في هذه الحالة يتم الانعكاس وفقا للترسيمة (29):

(29) **مستوى مصدر:** α

$\updownarrow$

مستوى هدف: β

من أمثلة هذا الضرب من الانعكاس في اللغة العربية استعمال الأداتين "إنّ" و"قد". ترد هاتان الأداتان للتقوية ("التوكيد") لكنهما تحققان مخصصين لطبقتين مختلفتين من المستوى العلاقي: تحقق "إنّ"

مخصص التقوية المنصب على الفعل الخطابي برمته في حين تحقق الأداة "قد" مخصص التقوية الذي يتخذ حيزا له المحمول الفعلي كما هو الشأن في الجملتين (30 أ – ب):

(30) أ– إنَّ عليّا ناجح

ب– قد نجح علي

بنيتا الجملتين (30 أ – ب) بالنظر إلى حيّز التقوية (المتوكل 2010) هما البنيتان التاليتان:

(31) أ – [إنَّ [عليا ناجح]]

ب– [[قد نجح] عليّ]

أما التحقق الكاتم فيحصل حين لا يكون ثمة تطابق أحادي بين العنصر في المستوى المصدر وأحد عناصر المستوى الهدف.

وللتحقق الكاتم مظاهر عدة. من مظاهره المعروفة أن يتحقق أكثر من عنصر واحد من المستوى المصدر في نفس العنصر من المستوى الهدف. من أمثلة هذا التحقق التجميعي انصهار مجموعة من المخصصات الواردة في المستويين العلاقي والتمثيلي في نفس الصيغة الفعلية كما هو الشأن في المحمول الفعلي "كَتَبَ" الدال في ذات الوقت على "المعلوميّة" (البناء للمعلوم) والزمان المضيّ والجهة التام والجنس والعدد. ومن مظاهره كذلك ما يسمى "الزحزحة" (المتوكل (1987)). نجد هذه الظاهرة في التراكيب "المسماة "تراكيب تصعيدية" حيث يحتل مكون ما موقعا في مجال ليس مجاله التحتي (العلاقي/التمثيلي) كما هو الشأن في الجملة (32 ب) مقارنة بالجملة (32 أ):

(32) أ – أن <u>خالداً</u> آت

ب– أظن <u>خالدا</u> آتياً

فالمكون "خالدا" في الجملة الثانية "صُعِّد" من المجال المـــدمَج إلى المجال الرئيسي (من الجملة "السفلى" إلى الجملة "العليا") كما يتضح من التمثيل التالي:

(33) [أظن [أن (خالدا) (آت)]]

تستدعي ثنائية التحقق الشَّفَّاف/التحقق الكاتم الملاحظات العامـــة التالية:

أولا، ليس ثمة كاتمية مطلقة مقابل شَفَّافية مطلقة ولو تعلق الأمـــر بلغة الإِسْبِـــرَانْتُو" التي تعدُّ أشفَّ اللغات. هاتان السمتان إذن سمتـــان نسبيتان وليستا سمتين مطلقتين؛

ثانيا، تتدرج الشَّفَّافِيـــةُ عبر سلمية يمكن أن تكون السلمية العامة التالية:

(33) سلميّة الشَّفَّافية

شَفَّافية 〉 .... 〉 كاتميّة

\+ +

ثالثا، ليست ثمة لغات شَفَّافَة مطلقة الشَّفَّافِية ولا لغـــات كاتمـــة مطلقة الكاتمية وإنما اللغات تتموقع داخل متوالية قطباها لغات أقرب إلى الشفافية ولغات أقرب إلى الكاتمية. هذه المتوالية هي المتوالية (34):

(34) لغات شَفَّافَة ... . 〉لغات كاتمة〉

مما يجدر التنبيه إليه أن الانعكاس بجميع خصائصه لا ينطبق علـــى مجال الجملة فحسب بل كذلك على مجال المركب الاسمي.

حين نتحدث عن المركب الاسمي فإن المقصود بالحديث، كما هو معلوم، مقولة صرفية – تركيبية قوامها "مُحدِّد" و"رأس" و"فضلة" كما هو موضح في الترسيمة (35):

(35) (جملة1: [(مركب اسمي 1: [[مُحَدِّد] [رأس] [فضلة]]] (جملة1))

تنطبق هذه البنية العامة على المركبات الاسمية الواردة في الجمل التالية:

(36) أ- أعشق هذه الجارة الشقراء

ب- أعشق كل الجارات الشقراوات

ج - سرني ترقية المدير عليا

للمركب الاسمي أصلان تحتيان: فعل إحالي في المستوى العلاقي وحدّ (موضوع أولاحق) في المستوى التمثيلي.

يتضمن الفعل الإحالي مخصّصا "إحاليا" يؤشِّر إلى سمات التعريف/التنكير والإطلاق/ التقييد وكذلك الإشارة.

الفعل الإحالي أصل المركب الاسمي الوارد في الجملة (35أ) مثلا هو الفعل الإحالي (36):

(36) (... (... (< إشارة> < معرّف> <مقيد > فعل إحالي1)))

أما الحدّ فيتضمن مخصصا للجنس والعدد وكذلك للسور (كلي أو بعضي) ينصب على "مقيدات" أولها اسم (أو مصدر) كما يتبين من الحدّ (37)، الأصل التمثيلي لنفس المركب الاسمي الوارد في الجملة (36 ب) على هذا النحو:

(37) (...(< ∀ > <مؤنث> < جمع> س1 (جارة: شقراء) متقبل))

∀= سور كلي

حين ينقل الفعل الإحالي والحدُّ معا إلى المستوى الصرفي - التركيبي حيث يصبحان مركبا اسميا، يُتوقع أن تتم عملية النقل هذه على أساس انعكاس تطابق بين المستوى الأخير والمستويين الأولين.

صح هذا التوقع في الجملة (36أ) لكنه لم يصح في الجملة (36ب) حيث تحقق السور الكلي ("**كل**") رأسا للمركب الاسمي عوض أن يتحقق محددا (وهي خاصية من خصائص العربية)؛ و لم يصح أيضا في الجملة (36ج) حيث لا تطابق بين الحالة الإعرابية (الجر) التي يحملها الاسم "**المدير**" وبين وظيفته الدلالية (منفذ) والتركيبية (فاعل) كما يتبين من المقارنة بين هذه الجملة ومقابلتيها المتوقعتين (38 أ-ب):

(38) أ- *سرّني ترقيةٌ المدير علياً

ب- * سرّني ترقيةُ المدير علياً

خلاصة:

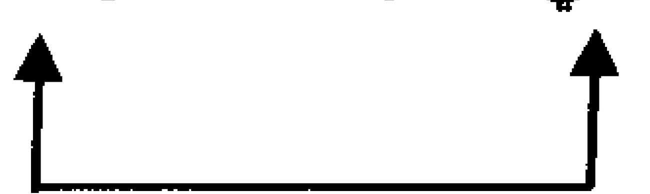
تنطبق عملية إنتاج الخطاب من المستوى العلاقي نحو المستوى الصرفي-التركيبي ثم المستوى الفونولوجي مرورا في أغلب الأحوال[12] بالمستوى التمثيلي تؤطرها المكونات المصاحبة وبالخصوص المكون السياقي.

يحكم هذه العملية انعكاس عناصر المكون السياقي في مستويات المكون النحوي الأربعة وانعكاس عناصر السابق منها في اللاحق انعكاسا تتفاوت درجات شَفَّافيته.

تكمن أهمية مسلسل الانعكاس هذا ووسائله وحيوزه ودرجات شَفَّافيته في أنه بالإمكان اعتماده اعتمادا كليا أو على الأقل، اعتمادا جزئيا في المقارنة بين اللغات ورصد تطورها وفي إغناء وضبط معايير تنميط الخطابات كما سنحاول أن نبين في المباحث الموالية.

الهوامش

1. انظر الفرق بين هذين النمطين من اللغات في (لي (1976)). أمثلة توضيحية لهما في المبحث 3.1.
2. ويلحق الاختلاف كذلك فحوى هذه البنيات الأربع. فلئن حصل الاتفاق على عناصر الصرف والتركيب والفونولوجيا نسبيا فإن النظريات اللسانية تتباين من حيث الفصل بين الدلالة والتداول من جهة، وبين ما يجب رصده في كل من البنيتين الدلالية والتداولية من جهة أخرى. بل إن الاختلاف قد يقوم بالنظر إلى هاتين البنيتين بين مختلف النماذج التي تفرزها نفس النظرية عبر تطورها. قارن على سبيل المثال، بين نماذج نظرية النحو الوظيفي من النموذج المعيار إلى نموذج نحو الخطاب الوظيفي (هنخفلد وماكنزي (2008)) مرورا بما "أسميناه" نحو الطبقات القالبي (المتوكل (2003)). تفصيل هذا في مبحث لاحق.
3. هذا الاختلاف في "دخْل" التأويل الدلالي قام كما هو معلوم داخل النظرية التوليدية-التحويلية، قام بين ما سمي آنذاك "النظرية المعيار" و"النظرية المعيار الموسعة" (تشومسكي (1965) و(1970) على التوالي).
4. نتبنى هذا، كما في أبحاثنا السابقة (المتوكل (1985) و(1989) و(2005) و(2010))، أطروحة أن المكون الوارد بعد الفعل فاعل إلا إذا تقدم حيث يصبح آنذاك "مبتدأ" كما يتضح من المقارنة بين الزوج الجملي التالي:
أ- [فاز عليٌّ فوزاً عظيما]
ب[عليٌّ، [فاز – ضمير فوزاً عظيما]]



5. انظر التفاصيل في الفصل الثالث من (المتوكل (2010)).
6. انظر تفاصيل تأويلنا لهذه الوظائف وردها إلى وظيفة التواصل (المتوكل (2005) و(2010)).
7. يشمل التحويل كذلك الانتقال من "قدرة لغوية في اللغة المكتسبة إلى قدرة لغوية في لغة أخرى أثناء التعلم.
8. نقل خطاب ما إلى خطاب آخر إما "نقل محض" أو ترجمة. والترجمة إما **بينيّة** (من لغة إلى لغة) أو **عينية** (داخل نفس اللغة) ثم بين مستويين لغويين من لغة واحدة (من العربية الفصحى إلى إحدى دوارجها مثلا) وتكون إما شرحا أو تلخيصا أو تفسيرا أو تأويلا. والترجمة إما **نسقية** داخل نفس النسق التواصلي (لغة كان أم صورة أم إشارة) أو أنساقية تتم بين نسقين أو أنساق

تواصلية مختلفة (بين لغة وصورة أو إشارة مثلا). انظر تفاصيل هذا التصنيف لعمليات النقل في (المتوكل (2011)).

9. هذا هو الترتيب الذي يدافع عنه الجرجاني (الدلائل) قبل لڤيلت (لڤيلت(1978)). انظر تفصيل ذلك في (المتوكل (1982) و(2006).

10. درجنا على الاحتفاظ بمصطلح "المُضي" للدلالة على المخصص الزمني على أن نحرِّرَ مصطلح "الماضي" للصيغة الصرفية (في مقابل "مضارع"). لدينا إذن ثلاث مقولات دلالية زمنية: "مضي" و"حال" و"استقبال" وصيغتان صرفيتان: ماض ومضارع، مع العلم ألاّ تطابُقَ ضروريا بين الصيغتين والمقولات الثلاث.

11. لئن كانت الوظائف الدلالية والوظائف التداولية مفاهيم كلية فإن الوظائف التركيبية نسبية. للاطلاع على معايير معرفة مدى ورود هذه الوظائف في لغة ما انظر (المتوكل (1987)).

12. ثمة عبارات لا فحوى دلاليا لها يقتضي إفراد مستوى تمثيليا له كعبارات التهاني والتحايا. في حالات كهذه تُمرَّر كل المعلومات الواردة في المستوى العلاقي إلى المستويين الصرفي - التركيبي والفونولوجي رأسا.

الفصل الثاني

الانعكاس البنيوي والمقارنة

0. مدخل

من المعايير التي يمكن أن تُعتمد في مقارنة اللغات بعضها ببعض واستجلاء ما يؤالف وما يخالف بينها قصد تنميطها معيارُ الانعكاس البنيوي كما حددناه مفهوماً ووسائلَ ودرجاتٍ.

سنحاول أن ندافع هنا عن إمكان توسيع إجرائيته وإمكان اعتماده لا في تنميط اللغات فحسب بل كذلك في تنميط الخطابات.

1. الانعكاس البنيوي وتنميط اللغات

اقترح هنخفلد (هنخفلد (2011 أ و ب)) مجموعة من الروائز تُمكّن من التمييز بين الانعكاس الشّفّاف والانعكاس الكاتم واستخدم هذه الروائز في المقارنة بين عدد من اللغات منها "سري لانكا مالاي" وكِيشِيوَا وغيرهما إضافة إلى اللغات الانجليزية والهولندية والإسبانية.

وكنا قد اقترحنا بضع سنوات من قبل (المتوكل (2005)) ثنائية الشّفّافية/الكاتمية كسمتين من سمات التركيب لتنميط اللغات ورصد تطورها.

ما نرمي إلى إنجازه هنا -أو إنجاز بعضه - هو عرض هذه الاقتراحات وفحصها مع استشراف إمكان إدماجها في إطار تقاربي أشمل وأدق.

0.1. معايير التنميط

0.1.1. معايير مقترحة

من المعايير التي اقتُرحت أو تُدووِّلت في أدبيات نظرية النحو الوظيفي ثلاثة معايير: تصنيف اللغات من حيث نوع صرفها وثنائية التركيب الشَّفَّاف/التركيب الكاتم (المتوكل (2005)) وحُزمة الخصائص التي تسم اللغات الشفافة أو النازعة إلى الشَّفَّافية (هنخفلد (2011 أ و ب)).

1) اللغات من حيث طبيعة صرفها ثلاثة أصناف: لغات "عازلة" ولغات "إلصاقية" ولغات "صاهرة".

أ) يقال عن لغة إنها من فئة اللغات العازلة حين تُفرِد لكل عنصر تحتي علاقي (تداولي) أو تمثيلي (دلالي) عنصرا يخصه دون غيره في المستوى الصرفي.

ب) تفرِد اللغات العازلة للعناصر التحتية مقابلات صرفية مفصولا بعضها عن بعض. أما اللغات الإلصاقية فإنها تؤدي المهمة نفسَها بواسطة "الإلصاق" أي ضم "لواصق سابقة" و"لواصق لاحقة" إلى الجدع. مثال ذلك ما نراه حاصلا في المفردة الأنجليزية التالية:

(1) Nat-ion-al-iz-ation

حيث تتوالى بعد الجدع (Nat) لواصقُ تحقّق سمات "الاسمية" و"الصِّفيَّة" و"الجعل" و"الحدثيَّة" على التوالي.

ج) اللغات الصاهرة لغات تجميعية تعبر بواسطة صُرفة واحدة (وحدة صرفية) عن عناصر متعددة من المستويين التحتيين العلاقي والتمثيلي. من اللغات الصاهرة اللغة العربية كما يتبين من المقارنة بين المفردة الأنجليزية (1) ومقابلتها العربية (2):

(2) تأميم

حيث تتحقق جميع السمات المدلول عليها باللواصق بواسطة وزن مصدري واحد هو وزن "تفعيل" انطلاقا من الجدر "أ.م.م.". ليست الصاهرية مشروطة ضرورة" بالاشتقاق عن طريق الأوزان إذ إن لغات أخرى تتسم بهذه السمة دون أن تكون لغة "وزنية" كما يتبين من المثال الإسباني (3):

(3) Compré (هنخفلد (2011 أ و ب))

"اشتريت"

حيث تُجمِّع اللاحقة (é) سمات "المُضي" و"التمام" و"الشخص" و"العدد".

2) عرَّفنا (المتوكل (2005)) التركيب الشَّفَّاف في مقابل التركيب الكاتم بأنه التركيب المتسم بسمتين: بكونه يفصل بين حيِّزي الانعكاس العلاقي والانعكاس التمثيلي في مستوى البنية الصرفية-التركيبية "على أساس أسبقية الحيز العلاقي على الحيز التمثيلي نتيجة لأسبقية المستوى العلاقي على المستوى التمثيلي في البنية التحتية وفقا للترسيمة (4):

(4) [[حيز علاقي] [رأس] [حيز تمثيلي]]

وبكون هذين الحيزين يأخذان من السَّعة ما يكفي لإيواء أكبر عدد ممكن من العناصر التحتية. الشَّفَّافية (كالكاتمية) درجات يُرَاز مداها بمدى تحصيل التركيب لسمتي الفصل والسَّعة. بتعبير آخر، التركيب الذي يفصل بين الحيزين العلاقي والتمثيلي أشفُّ من التركيب اللاغي لهذا الفصل والتركيب الذي يتسع فيه الحيزان لاستقبال أكبر عدد ممكن من العناصر الواردة عليهما أشف من التركيب الذي لا يتيح ذلك.

3) الانتقال من البنية التحتية بمستوييها العلاقي والتمثيلي إلى بنيتي السطح الصرفية - التركيبية والفونولوجية، في نظر هنخفلد (هنخفلد (2011 أ وب))، انتقالان: "انتقال شفّاف" و"انتقال كاتم". تقوم الشّفّافية في هذا المنظور على مدى إحراز مجموعة من السمات هي السمات التالية:

(5) سمات الانتقال الشّفّاف

(أ) لا وظائف تركيبية

(ب) لا تَقَطُّعَ للمجال

(ج) لا زحزحة

(د) لا تأثير فونولوجيا في الرتبة

(هـ) لا تكييف لمخصص الزمن

(و) لا مطابقة بين الفعل والفاعل/ الرأس بالفضلة

(ز) لا صرفَ مستقلاً

(ح) لا صرف صاهرا

2.1.1. نحو إطار متكامل للتنميط

يمكن أن تشكل الفئات الثلاث من المعايير إطارا عاما متكاملا للتنميط إذا ما نحن أخذنا بالملحوظات التالية:

1) أعدنا ترتيب العناصر الواردة في المصفوفة (5) على أساس تقسيمها إلى قسمين: معايير تركيبية تشمل المعايير (5 أ-د) ومعايير صرفية وهي المعايير (5هـ - ح)؛

2) يتعين إعادة النظر في بعض معايير المصفوفة (5) من حيث ورودها أولا ومن حيث مطلقيّتها ثانيا؛

أ) يذهب هنخفلد (هنخفلد (2011 أ و ب)) إلى أن ظاهرة

المطابقة من الظواهر المُوَلِّدَة لكاتمية الصرف المانعة، بالتـالي، من شَفَّافيته. دعوى ذلك أن هذه الظاهرة تعبر عـن نفـس السمة مرتين كما هو الشأن في المركبين الاسميين (6أ -ب) مثلا:

(6) أ- الفتاة الجميلة

ب- التلميذ Ø الذكيّØ

حيث استنسخت سمة الجنس من الاسم الرأس إلى الفضله الصفة. ليس واضحا كل الوضوح لدينا مدى إسهام المطابقة في التعتيم الصرفي إلا إذا سلمنا بأن تعدد التعبير عن السمة الواحـدة ينـاقض تعريـف الشَّفَّافية القاضي بأحادية العلاقة بين السمة والصُّرفة؛

ب) من معايير المصفوفة (5) ما يوحي من حيث صياغته بالمطلقية في حين أن المعطى اللغوي يثبت نسبيته. من ذلـك المعيـار (5أ) باعتبار أن اللغات ليست إما لغات تستخدم الوظائف التركيبية أو لغات لا تستخدم هذه الوظائف إذ إن ثمة لغات تسـتخدم إحداها دون الأخرى كما هو شأن اللغة الفرنسية التي تقتضي إسناد الفاعل إلى أحد الحدود دون إسناد المفعول(1)، شـاهد ذلك لحن التراكيب التي من قبيل (7ب) حيث أُسند المفعول إلى غير الحدّ المتقبل.

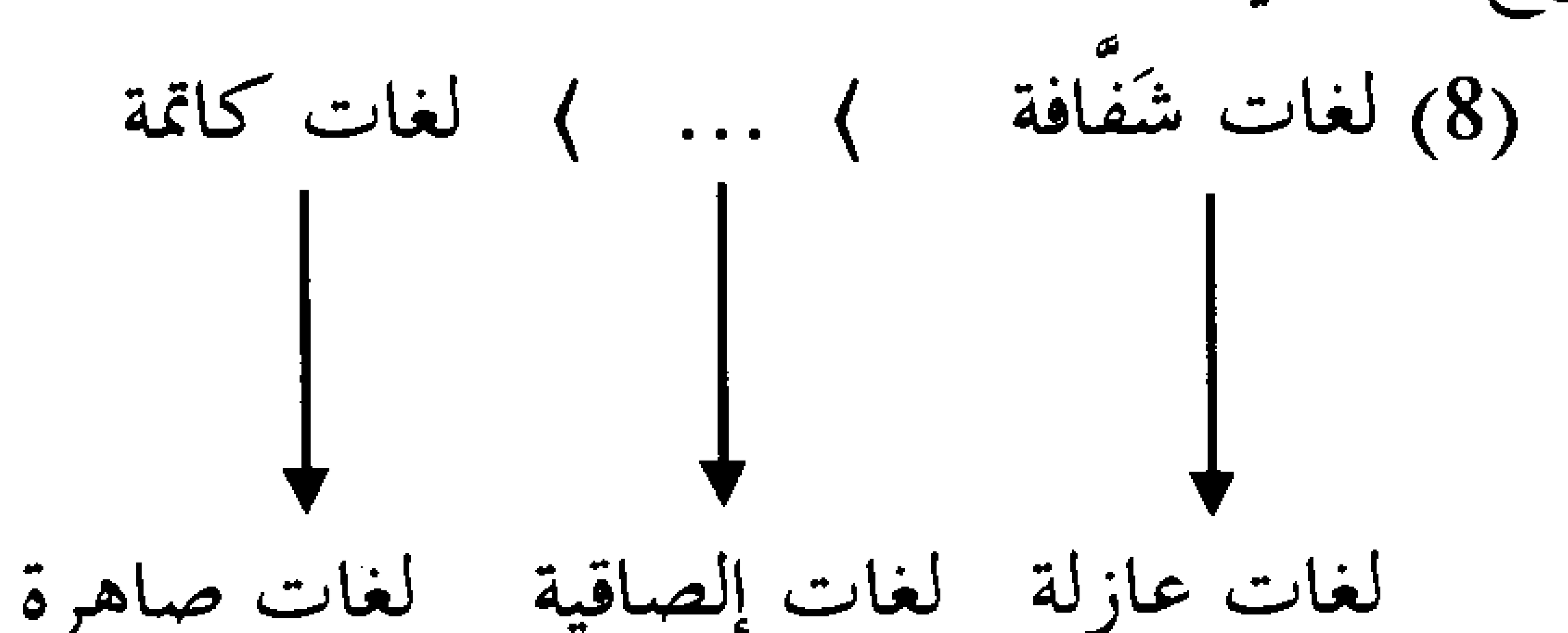
(7) أ- Marie a donné le livre à Paul

"أعطت ماري الكتاب لبول"

ب-* Marie a donné Paul le livre

ومن المعايير الواجب تنسيبُها أيضا المعيار (5 ح) الذي يفهم منـه

أن ما عدا اللغات الصاهرة لغات شَفَّافة، يبدو لنا أن اللغات الإلصاقية تشكل حلقة وسطى بين شَفَّافية الصرف وكاتميته وأنه مـــن الممكـــن صوغ ذلك في السلمية التالية:



3) يمكن تعزيز المصفوفة (5) بمعيار نستوحيه من مبدإ الفصـــل بـــين الحيزين العلاقي والتمثيلي في المستوى الصرفي - التركيبـــي مـــن البنية السطحية فتصبح المصفوفة كالتالي:

(1) سمات الانتقال الشَّفَّاف

(أ) لا وظائف تركيبية

(ب) لا تَقَطُّعَ للمجال

(ج) لا زحزحة

(د) لا تأثير فونولوجيا في الرتبة

(هـ) لا تداخل بين العلاقي والتمثيلي في البنيـــة الصـــرفية-التركيبية

(و)لا تكييف لمخصص الزمن

(ز) لا مطابقة بين الفعل والفاعل/ الرأس بالفضلة

(ح) لا صرفَ مستقلاً

(ط) لا صرف صاهرا

4) تتضمن المصفوفة (9) معايير تخص ثنائية الشَّـــفَّافية/الكاتميـــة دون غيرها، علما بأن هذه الثنائية ليست إلا جانبا من جوانـــب مبـــدإ الانعكاس، نقترح أن نشفعها بمعايير سبق أن عرضنا لها في الفصل

السابق، المعايير المرتبطة بوسائل الانعكاس (صرف، تركيب، تنغيم...). كما نقترح أن نضيف إلى معياري الشّفّافية ووسائل الانعكاس معيارا نصطلح على تسميته، كما فعلنا سابقا (المتوكل (2003)) معيار "التغليب". ونقصد بهذا المفهوم هنا تغليب أحد المستويين العلاقي والدلالي في الانعكاس داخل البنية الصرفية-التركيبية. ما يدعم هذا الاقتراح أننا نتوقع أن تختلف اللغة في سعة الحيز الذي تفرده في هذه البنية لإيواء العناصر الواردة من المستوى العلاقي والمستوى التمثيلي.

3.1.1. الانعكاس في اللغة العربية ولغات أخرى

يقوم هذا المبحث مقام عيّنة للمقارنة على ضوء الإطار التنميطي الذي رسمنا معالمه الكبرى في المبحث السابق. تتخذ العينةُ مرجعا أَوَلِيًّا لها اللغة العربية في مقابل لغات أخرى منها اللغتان الأنجليزية والفرنسية ولغات شكلت متن التمثيل لدراسة الشّفّافية/الكاتمية التي قام بها هنخفلد (هنخفلد (2011 أ وب)). ما يمنح هذه العينة قدرا معقولا من التمثيلية، في رأينا، هو تباين اللغات موضوع الفحص وإن قل عددها.

1.3.1.1. حيز الانعكاس: علاقي/ تمثيلي

تتآلف اللغات، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، في إفرادها للعناصر الواردة من المستويين العلاقي والتمثيلي حيزين اثنين مفصولا بينهما في أغلب الحالات لكنها تختلف من حيث السعة التي تمنحها لكل حيز. فمن اللغات ما يُغَلِّب من حيث الطاقة الإيوائية الحيز العلاقي على الحيز التمثيلي ومنها ما يفعل العكس.

لنر الآن كيف ينطبق هذا الاختلاف حين يتعلق الأمر باللغة العربية من جهة واللغتين الأنجليزية والفرنسية من جهة ثانية. توحي معطيات اللغة العربية (المتوكل (2005) و(2010)) أن الحيز المتاح للعناصر العلاقية يتضمن ثلاثة مواقع كما يتبين من الترسيمة (10):

(10) [[م1 م2 م3 [...]]] جملة

حيث م = موقع

العناصر الواردة من المستوى العلاقي مركّباتٌ اسمية بؤراً ومحاورَ وأدواتٍ إنجازية (أدوات الاستفهام) وأدوات وَجهية (أدوات تقوية مثلا) ولواحق (ظروف) إنجازية أو وجهية. لنأخذ مثالا لذلك الجملة التالية:

(11) أ - **بصراحة** أَ زينبَ قابلتَ (أم غير زينب)؟

العناصر علاقية المصدر في هذه الجملة اللاحقُ الانجازي "**بصراحة**" وأداة الاستفهام "**الهمزة**" والمركب الاسمي الحامل للوظيفة التداولية بؤرة المقابلة "**زينب**". هذه المكونات الثلاثة تحتل المواقع م1 وم2 وم3 على التوالي علما بأن قلب الترتيب داخل نفس الحيز ممكن كما يتبين من المقارنة بين طرفي الزوج الجملي التالي:

(12) أ- أَ حقًّا زينبَ قابلتَ؟

ب - **أَ زينب** حقاً قابلت؟

في الجملة (12أ) يحتل الموقعين م2 وم3 المكونُ الوَجهي "**حقاً**" والمكون البؤرة "**زينب**" على التوالي في حين يُعكس هذا الترتيب في الجملة (12 ب). يُستنتج من هذه المقارنة أن مواقع الصدر في الترسيمة (10) ليست محفوظة تخص عناصر علاقية بعينها بل

مفتوحة لكل أصناف هذه العناصر شريطة ألا يتجاوز عددها العدد الممنوح (أي ثلاثة عناصر) كما يتضح من التراكيب التي من قبيل (13):

(13) * بصراحة أ حقاً زينب قابلت؟

يُفسِّر لَحْنَ التركيب (13) حيث يتواجد في نفس الموقع مكونان اثنان خَرْقُهُ لقيد "أحادية الموقعة" الذي صغناه (المتوكل (1985)) كالتالي:

(14) "لا يحتل نفس الموقع أكثر من مكون واحد"

ملحوظة: حين لا يتسع الحيز العلاقي بمواقعه الثلاثة لما يرد عليه من مكونات، تتم "زحلقة" أحدها إلى عجز الجملة (باستثناء الأداة الإنجازية):

(15) أ- **بصراحة أ زينب** قابلت **حقا؟**

ب- أ زينب حقاً قابلت بصراحة؟

انطلاقا من إمكان الزحلقة هذا، اقترحنا في مكان آخر (المتوكل (2010)) أن نصوغ البنية الصرفية - التركيبية في اللغة العربية كالتالي:

(16) [[صدر: م1 م2 م3] [وسط] [عجز]] جملة

حسب هذا الاقتراح يكون الحيّز العلاقي حيّزين حيزا صدرا وحيّزا عجزا يتوسطهما الحيّز المُعدُّ للعناصر الواردة من المستوى التمثيلي.

تختلف اللغتان الأنجليزية والفرنسية عن اللغة العربية من حيث المساحة التي تمنحانها للحيّز العلاقي من البنية الصرفية - التركيبية. يكمن هذا الاختلاف في أن هذا الحيز في اللغتين معا لا يتضمن إلا موقعا واحدا، الموقع م1 الخاضع بالطبع لقيد أحادية

الموقعة (14). يتضح هذا من المقارنة بين أطراف الثالوثين الجمليّين التاليين:

(17) أ- Frankly,John is a good linguist

ب- Certainly, John is a good linguist

ج- Frankly, certainly, John is a good linguist*

(18) أ- Franchement; Jean est un bon linguiste

ب- Certainement, Jean est un bon linguiste

ج- Franchement, certainement, Jean est un bon linguiste*

من البين أن لحن الجملتين (17ج) و(18ج) آيل إلى تحميل الحيّز الصدر ما لا يحتمل بإحلال لاحقي الإنجاز والوجه في الموقع م1، الموقع الوحيد الذي يتضمنه الحيز العلاقي في اللغتين الأنجليزية والفرنسية. في هذا الوضع، كيف تتصرف اللغتان في مهمة نقل العناصر العلاقية إلى البنية الصرفية - التركيبية حين يضيق عن إيوائها الحيز العلاقي من هذه البنية؟

I) لا توجد في هذه اللغات أدوات إنجازية (في مقابل أدوات الاستفهام في اللغة العربية مثلا). ناتج هذا أن الموقع م1 يظل شاغرا قابلا لإيواء لواحق إنجازية أو وجهية كاللاحقين الواردين في الجملتين (17 أ - ب) والجملتين (18 أ - ب)؛

II) يتم تبئير المقابلة في اللغة العربية بواسطة التقديم المحض كما هو الشأن في الجملة (19):

(19) هندا سيقابل خالد

أما في الأنجليزية والفرنسية فإن نفس الغرض يؤدى عبر استراتيجية ما يسمى "الفصل":

يحصل فصل المكون المراد تبئيره تبئير مقابلة بإحلاله بين الحاضنتين "c'(être)... que" و "It (be)...that" كما هو الشأن في الجملـــتين (20) و(21) المرادفتين للجملة (19):

It is **Hind** that Khalid will meet (20)

C'est **Hind** que khalid rencontrera (21)

2.3.1.1. وسائل الانعكاس: صرف/ تركيب / تطريز

تسنَّى لنا الحديث مـــرات عـــدة (المتوكـــل (2005) و(2006) و(2010)) عن كيفية انتقال عناصر المستويين العلاقي والتمثيلـــي إلى سطح العبارة اللغوية وعن الوسائل التي تستخدمها اللغات وبالخصوص اللغة العربية لإنجاز هذا الانتقال.

ما يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو التوصل إلى رصد النــــــزوعات العامة التي تحكم مسطرة تسطيح المستويين التحتيين.

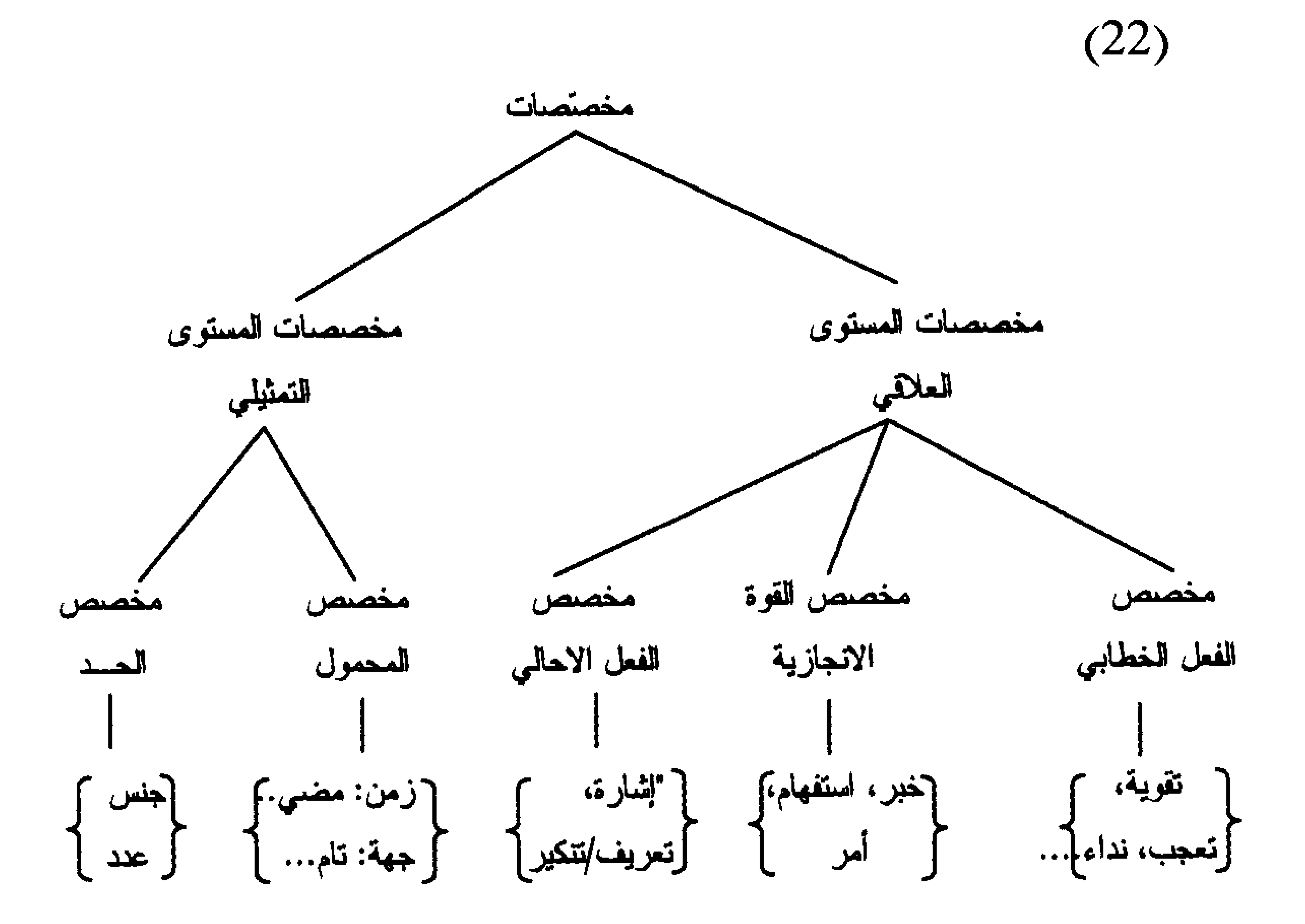
لنذكّر أن السمات المرادَ تسطيحها ممثل لها في المستوى العلاقـــي والمستوى التمثيلي في شكل مخصصات ووظائف.

مخصصات المستوى العلاقي: مخصص الفعل الخطابـــي (تقويـــة، تعجب، نداء) ومخصص القوة الإنجازية (خـــبر، اســـتفهام، أمـــر...) ومخصص الفعل الإحالي (إشارة، تعريف/تنكير...).

ومخصصات المستوى التمثيلي هي مخصص المحمول (زمن، جهـــة) ومخصص الحد (جنس، عدد).

بيان مخصصـــات المســـتويين التحتـــيين وقيمهـــا في الترســـيمة التالية:

(22)



أما الوظائف فهي فئتان: وظائف دلالية تحملها الحدود في المستوى التمثيلي (منفذ، متقبل، مستقبل، مستفيد...) ووظائف تداولية تسند داخل طبقة الفحوى الخطابي من المستوى العلاقي إلى الفعل الحَمْلِي أو الفعل الإحالي (محور، بؤرة جديد، بؤرة مقابلة...).

من الممكن أن نستخلص من المعطيات المفحوصة في اللغة العربية وبعض لغات أخرى تباينها مجموعةَ التوجهات العامة التالية التي نراها تحكم "تسطيح" المخصصات والوظائف:

I) المتاح للغات من الوسائل للقيام بمسطرة التسطيح إما وسائل صرفية (صرفات حرة، أدوات، لواصق...) أو وسائل تركيبية (رتبة، تراكيب مخصوصة...) أو وسائل تطريزية (نبر، تنغيم).

II) يضطلع الصرف غالبا بتحقيق سمات المخصصات مع اختلاف في صنف الصرف من لغة إلى لغة. فهو صرف صاهر في اللغة العربية

وهو صرف إلصاقي في اللغتين الأنجليزية والفرنسية في حين يكون صرفا عازلا في لغات أخرى. قارن صورة الفعل في الجملـــة (23) بصورتيه في مرادفتيها (24) و(25):

(**23**) **اجتاز** عليّ الامتحان بنجاح

Ali pass-ed the exam successfully (**24**)

Ali pass-a l'examen avec succés (**25**)

(III) يمكن للتركيب أن يسخّر أيضا في تحقيق المخصصـــات. شـــاهد ذلك ما نراه حاصلا في الجمل التعجبية في كل من اللغتين الأنجليزية والفرنسية دون اللغة العربية التي يتم فيها التعجب صرفيا (بواسطة صيغتي "ما أفعل" و"أفعل ب" كما هو معلـــوم). بيـــان هـــذا في الجملتين (27) و(28) حيث التعجب مدلول عليه بالرتبـــة[2] في مقابل الجملة (26):

(**26**) ما أجملها! / أجمل بها!

Is she beautiful! (**27**)

Est-elle belle! (**28**)

نفس الاستراتيجية الرتبية تستخدمها اللغتان في تحقيق مخصـــص الاستفهام:

(**29**) **هل** سيعود؟

Will **he** come back ?(**30**)

Reviendra-t-**il** ?(**13**)

IV)يمكن أن يقوم التنغيم بأحد دورين: دور الوسيلة الأساســـية ودور الوسيلة المصاحبة (أو المواكبة). يقوم التنغيم بدور الوسيلة الأساسية حين يضطلع وحده بتحقيق المخصّص كما هو الشأن في الجمـــل التالية:

(32) سيعود؟

He will come back ? (33)

Il reviendra ? (34)

ويقوم بدور الوسيلة المصاحبة في التراكيب التي من قبيل (29) و(30) و(31) حيث يواكب الصرفَ والتركيبَ في تحقيق القوة الإنجازية الاستفهام على التوالي.

يجدر لفت النظر بهذا الصّدد إلى أن التنغيم وحده يمكن أن يقوم بدور المصاحب. فلا يسوغ أن يتوارد في نفس العبارة اللغوية الصرف والتركيب لتحقيق نفس المخصّص. شاهد ذلك لحن الجملة الفرنسية (35ب) مثلا:

(35) أ- ? **Est-ce qu'il** reviendra

ب-* ? **Est-ce que** reviendra-t-il

V) أما الوظائف الواردة من المستويين العلاقي والتمثيلي(3) فإن تحققها السطحي يتم وفق المسطرة العامة التالية:

أ. تنعكس الوظائف الدلالية عن طريق الصرف إما بواسطة الإعراب أو بواسطة حروف. ينطبق المسلك الأول على اللغة العربية حيث تُسند الحالة الإعرابية النصب إلى المكونات الحاملة لوظائف دلالية ما لم تكن هذه المكونات مسبوقة بحرف جر، وما لم تسند إليها لاحقا الوظيفة التركيبية الفاعل كما يحدث في التراكيب المبنية للمجهول. أما المسلك الثاني فهو مسلك اللغات غير الإعرابية كالأنجليزية والفرنسية؛

ب. وتتحقق الوظائف التداولية بالتركيب إما بواسطة الرتبة (التقديم أساسا) أو بواسطة بنيات مخصوصة كبنية "الفصل" كما هو الشأن في الجملتين (20) و(21) مثلا. ويمكن أن

تتحقق صرفيا في بعض اللغات بواسطة لاصقة لاحقة كاللاصقة "**Wa**" الدالة على المحور في اليابانية.

(VI) يمكن أن نلخص ما استنتجناه عن تحقق المخصصات والوظائف التداولية في السلميتين التاليتين:

(36) تحقق المخصّصات

صرف (+ تنغيم) 〉 تركيب (+ تنغيم) 〉 تنغيم

(37) تحقق الوظائف التداولية

تركيب (+ تنغيم) 〉 صرف 〉 تنغيم

يفاد من السلمية (36) أن المكون الذي يضطلع بتحقيق المخصّصات بالدرجة الأولى هو المكون الصرفي مصحوبا بالتنغيم أو غير مصحوب به ثم يليه التركيب مصحوبا بالتنغيم أو دون تنغيم ثم التنغيم المحض. وتُقرَأ السلمية (37) على أساس أن التركيب يشكل الوسيلة الأولى لتحقيق الوظائف التداولية مصحوبا بالتنغيم أو دون تنغيم يليه الصرف ثم التنغيم المحض كما هو الشأن في وظيفة بؤرة الجديد.

3.3.1.1. طبيعة الانعكاس: شَفَّاف/كاتم

انطلاقا من مقترحات هنخفلد (هنخفلد (2011 أ و ب)) وبناء عليها بعد تعديلها وضعنا مصفوفة المعايير(9) التي يمكن أن تُعتمد في روز شَفَّافية اللغات أو كاتميتها وفي رصد درجات شَفَّافيتها أو كاتميتها.

هدفنا في هذا المبحث تمرير صرف ثم تركيب اللغة العربية بعناصر هذه المصفوفة في إطار مقارنتها بلغات أخرى.

1.3.3.1.1. شَفَّافية الصرف

تروز شَفَّافِيَّةَ الصرف المعاييرُ (9و – ط). وتنطبق هـــذه المعـــايير بدرجات متفاوتة (أولا تنطبق) على مجموعة اللغات موضوع الفحـــص على النحو الذي سنبينه في ما يلي.

I) يتعلق المعيار (9 و) بالمحافظة على زمن المحمـــول في الخطـــاب أ- المنقول (أو الخطاب غير المباشر) أو عدم المحافظة عليـــه بتعويضـــه بالزمن الذي يناسب زمن النقل.

مكمن هذه الظاهرة في التداخل بين مركزين إشـــاريين اثـــنين: مركز الخطاب الأصل (المباشر) ومركـــز الخطـــاب المنقـــول (غـــير المباشر).

دعنا نفحص في هذا الصدد الزوجين الجمليين التاليين:

(38) أ- Est-ce que Jean va revenir?

ب- Paul m'a demandé si Jean **allait revenir**

(39) أ - Will John come back ?

ب- Paul asked me **whether** John **would come** back

يأخذ المحمول في الجملتين (38ب) و(39ب) زمن المركز الاشاري للنقل (مُضي) لا زمن المركز الإشاري للتخاطب الأصلي (مســـتقبل). ولو حصل العكس لأدى الأمر إلى الجملتين اللاحنتين (40أ –ب):

(40) أ– * Paul m'a demandé si Jean va revenir

ب– * Paul asked me whether John will come back

في المقابل، تحتفظ اللغة العربية بزمن الخطاب الأصل أيًّا كان زمن الخطاب المنقول:

(41) أ– هل سيعود خالد؟

ب– سألني بكر هل **سيعود** خالد

يمكن أن نصوغ الفرق بين اللغتين الأنجليزية والفرنسية من جهة واللغة العربية من جهة ثانية في السلمية (42):

(42) **لا تكييف لمخصّص الزمن**

اللغة العربية 〉 اللغتان الأنجليزية والفرنسية

\+ –

II) تشترك اللغتان الفرنسية والأنجليزية ولغات أخرى كالهولندية والإسبانية في خاصية المطابقة إن في مجال الجملة (بين الفعل والفاعل) أو في مجال المركب الاسمي (بين الرأس والفضلة الصفة)، في مقابل لغات لا تتم فيها المطابقة بين هذين المجالين معا كلغتي "كِيشِيوَا" و"سري لانكا" مثلا (هنخفلد (2011 أ و ب)).

أما اللغة العربية فتقف موقفا وسطا في مطابقة الفعل للفاعل من حيث العدد إذ لا تتم هذه المطابقة حين يرد الفاعل متأخرا عن فعله كما يتبين من المقارنة بين الجملتين (43 أ–ب):

(43) أ– رجع الجنود من الحرب سالمين

ب–* رجعوا الجنود من الحرب سالمين

إذا نحن أخذنا بهذه المعطيات، كانت سلمية المطابقة السلمية التالية:

(44) **لا مطابقة**

سري لانكا، كِيشِيوَا 〉 العربية 〉 الأنجليزية، الفرنسية...

\+ +/– –

III) نقول عن لغة ما إن صرفَها صرفٌ "مستقل" (المتوكل (2005)) إذا كانت العناصر الصرفية (أدوات، لواصق...) فيها لا أصل لها في المستويين التحتيين العلاقي والتمثيلي. بتعبير آخر، يكون الصرف مستقلا إذا لم يكن يعكس أي سمة من السمات التحتية. يمثل

هنخفلد (هنخفلد (2011 أ و ب)) للصرف المستقل بالعناصر "الزائدة" كالضمير الذي نجده في التعابير الطقسية مثلا:

(45) It rains

(46) Il pleut

واضح أن الضمير (il/it) لا يؤشِّر إلى أي فعل إحالي في المستوى العلاقي.

لا مقابل لهذا الضمير "الزائد" في اللغة العربية كما يتضح من لحن التراكيب التي من قبيل (47ب):

(47) أ- ينـزل المطر

ب-* يمطر

في نفس الاتجاه، وإن اختلفت الوسيلة، تُعبِّر لغة طاگالوگ عن نفس الأمر بالاسم دون أي أداة تقديم فيكون معادل التراكيب (45) و(46) و(47 أ-ب) التركيب (48):

(48) المطر

السلمية التي تصنف اللغات موضوع الفحص في هذا الباب سلمية كهذه:

(49) **لا صرف مستقِلا**

"طاگالوگ"، العربية 〉 الأنجليزية، الفرنسية... 〉

\+ −

IV)مر بنا أن الصرف في اللغة العربية واللغة الإسبانية صرف صاهر تُجمَّع فيه المخصصات التحتية في صرفة واحدة أو في صيغة واحدة كما في المثالين (2) و(3). يقابل الصرفَ الصاهرَ الصرفُ الإلصاقي والصرف العازل اللذان يشكلان درجتين نحو الشَّفَّافية الصرفية.

إذا سلمنا بأن اللغة العربية لغة صاهرة وأن اللغتين الأنجليزية والفرنسية لغتان إلصاقيتان أمكن أن نصوغ سلمية الصرف الشَّفَّاف كالتالي:

(50) لاصرف صاهرا

(لغات عازلة) 〉 الأنجليزية والفرنسية 〉 العربية

\-   +/-   +

تشير علامتا الإيجاب والسلب (-/+) إلى أن الانجليزية والفرنسية (واللغات الإلصاقية عموما) تنـزل منـزلة وسطى بين اللغات العازلة واللغات الصاهرة من حيث شفّافيَّة الصرف.

يسعنا الآن القيام بترتيب أوَّلِي للغات التي عُنينا بها من حيث درجات شَفَّافية الصرف. وليكن هذا الترتيب عبر السلمية (51):

(51) سلمية شَفَّافِيَّة الصَّرف

سري لانكا، كِيشِيوَا > العربية > الأنجليزية، الفرنسية...

\+   +   +

2.3.3.1.1. شَفَّافِيَّة التركيب

تُحْرَزُ شَفَّافِيَّة التركيب وتتدرَّج وفق مدى الاستجابة إلى مقتضيات المعايير (9 أ-هـ).

I) يستجاب للمعيار (9أ) حين تنقل الوظائف الدلالية (منفذ، متقبل، مستقبل، مستفيد...) إلى البنية السطحية رأسا دون توسط من وظائف تركيبية (فاعل، مفعول). بتعبير آخر، يقتضى المعيار (9أ) أن تخلو اللغة من الحالات التي يتم فيها تحييد الفروق القائمة بين مختلف الوظائف الدلالية بواسطة إسناد وظيفتي الفاعل والمفعول.

من اللغات التي لا تستخدم الوظيفتين التركيبيتين الفاعل والمفعول كلتيهما: اللغتان الهنغارية ولغة "الأَسْهِنِيز"، ومن اللغات ما يستخدم وظيفة الفاعل دون وظيفة المفعول كاللغة الفرنسية مثلا. في هذه اللغة يمكن إسناد الفاعل إلى المكون المنفذ أو المكون المتقبل كما هو الشأن في الجملتين (52 أ–ب):

(52) أ – L'armée a battu l'ennemi

ب– L'ennemi a été battu (par l'armée

أما إسناد المفعول فغير ممكن إلا إلى المكون المتقبل وهو ما يجعل إسناد هذه الوظيفة غير ذي ورود في اللغة الفرنسية. شاهد ذلك لحن الجملة (53 ب):

(53) أ– J'ai donné **le livre** à Paul

ب–*J'ai donné Paul le livre

في المقابل، تعد وظيفة المفعول واردة في اللغة الأنجليزية باعتبارها تسند لا إلى المكون المتقبل فحسب بل كذلك إلى المكون المستقبل:

(54) أ– I gave the book to Paul

ب– I gave Paul the book

في هذه اللغة تُسند وظيفة الفاعل إلى المكون المنفذ وكذلك إلى المكونين المتقبل والمستقبل:

(55) أ– The army has defeated the ennemy

ب– The ennemy has been defeated (by the army)

ج– Paul has been given the book

أما في اللغة العربية فثابتٌ أن كلتا الوظيفتين واردتان (المتوكل (1987) و(1989)) حيث يسند الفاعل إلى المكونات الحاملة للوظائف الدلالية المنفذ أو المتقبل أو المستقبل، بل أيضا إلى لاحق كاللاحق

الزمني، وحيث تُسند الوظيفة المفعول إلى المكون المتقبل أو المكون المستقبل. بيان ذلك في الأمثلة التالية:

(56) أ- هزم الجند العدو

ب- هُزم العدوّ (من قبل الجند)

ج- أُعطِي **خالد** الكتاب

د- صِيم يومُ الجمعة

(57) أ- كافأ المدير **عليا**

ب-منح المدير **عليا** مكافأة

بمقتضى الاستجابة إلى معيار الوظائف التركيبية (9أ) تحتل اللغتان الهنغارية و"الأَسْهِنيز" أعلى درجات الشَّفّافية وتحتل اللغتان العربية والأنجليزية أدناها، في حين تتوسط اللغة الفرنسية هذا الترتيب لكونها لا تستخدم إلا الوظيفة الفاعل. توضح ذلك السلمية التالية:

(58) لا وظائف تركيبية

الهنغارية، الأَسْهِنيز 〉 الفرنسية 〉 العربية، الأنجليزية

+ +/- -

II) ما يقتضيه المعيار (9ب) هو اتصال عناصر المجال الواحد دون تقطع. يسوق هنخفلد (هنخفلد (2011 أ و ب)) الجملة الموصولية الأنجليزية (59) مثالا لخرق قيد الاتصال:

The guy has arrived who is going to fix my lock (59)

تكمن عدم الاستجابة للمعيار (9ب) في هذا المثال في إقحام المركب الفعلي has arrived داخل الوحدة الدلالية the guy who is going to fix my lock

كما يتبين من الجملة المرادفة (60):

The guy who is going to fix my lock has arrived (60)

خرق قيد الاتصال هذا لا يوجد له نظير في اللغة العربية ولا في اللغة الفرنسية:

(61) أ- الشخص الذي سيركّب لي القفل وصل

ب-*الشخص وصل الذي سيركب لي القفل

(62) أ- Le gars qui va me monter la serrure est arrivé

ب-* Le gars est arrivé qui va me monter la serrure

الجملتان (61ب) و(62ب) لاحنتان ولا يرتفع لحنهما إلا إذا عُدَّ الموصول وصلته فيهما جملة موصولية غير تقييدية أو بدلية (المتوكل (2010)).

III) غير بعيد عن معيار الاتصال الحالي، يقتضي المعيار (9ج) ألا يزحزح عنصر من مجاله فَيُنزل في مجال غيره.

أشهر أمثلة ظاهرة الزحزحة ما سمي "التصعيد". والتصعيد أن يُنقل مكون ما من جملة مدمَجة (سفلى) إلى جملة رئيسية (عليا). ويلحق التصعيد بهذا المفهوم فاعل الجملة المدمجة لينقل إلى الجملة التي تعلوها ليصبح فاعلا أو مفعولا للفعل الرئيس.

الملاحظ أن ظاهرة تصعيد الفاعل هذه واردة في اللغتين الأنجليزية والفرنسية كما أنها واردة في اللغة العربية (المتوكل (1987))[4]:

(63) أ- It seems that Hind is happy

ب- Hind seems to be happy

ج- I beleive that Hind is happy

د- I beleive Hind to be happy

(64) أ- Il semble que Hind est heureuse

ب- Hind semble heureuse

ج- Je crois que Hind est heureuse

د- Je crois Hind heureuse

ترتيب هذه اللغات بالنظر إلى معياري عدم التقطع المجالي وعـــدم الزحزحة في السلميتين(65) و(66) أخذا بعين الاعتبار الوضع في لغتي "سري لانكا" و"كيشيوا" (هنخفلد (1120 أ و ب)).

(65) لا تَقَطُّعَ للمجال:

"سري لانكا"، "كيشيوا"، العربية، الانجليزية 〉 الفرنسية

+ –

(66) **لا زحزحة**

سري لانكا 〉 العربية، الأنجليزية، الفرنسية〉

+ –

IV) يلاحظ هنخفلد (هنخفلد (2011 أ وب)) أن الرتبـــة في بعـــض اللغات تتأثر بما يسميه "الوزن الفونولوجي" للمكونات. تصـــدق هذه الملاحظة على اللغة الفرنسية حيث يقدم المكون المفعـــول (أو على الأصح المتقبل) على الفعل إذا كان ضميرا كما تـــبين ذلـــك المقارنة بين الجمل (67 أ-ج):

(67) أ- Khalid boit une tasse de thé

ب- Khalid **la** boit

ج- * Khalid boit la

ليس لهذه الظاهرة ورود في اللغة الأنجليزية إذ يحـــتفظ المكـــون المفعول بموقعه بعد الفعل سواء أكان مُرَكَّـــباً اسميا أم ضميرا:

(68) أ- Khalid drinks a cup of tea

ب- Khalid drinks **it**

ج- * Khalid **it** drinks

أما اللغة العربية فتستخدم استراتيجيتين اثنـــتين همـــا: إحـــلال الضمير محله بعد الفعل إن كان متصلا وتقديمه على الفعل إن كـــان منفصلا:

(69) أ – يشرب خالد كأس شاي

ب– يشربـــ**ها** (خالد)

ج– **إياها** يشرب (خالد)

إذا أخذنا بعين الاعتبار ما ورد في بحث هنخفلد (هنخفلد (2011 أ و ب)) عن كون الوضع في لغتي "سري لانكا" و"كيشيوا" الوضع في الفرنسية أمكننا صوغ السلمية التالية:

(70) **لا تأثير فونولوجيا في الرتبة**

الأنجليزية > العربية > "سري لانكا"، "كيشيوا"...

+ +/- –

V) حين نتحدث عن عدم التداخل يكون المقصود، كمـــا ســـبق أن أشرنا إلى ذلك، إفراد حيّزين منفصلين للعناصر الواردة على البنية التركيبية من المستويين التحتيّين العلاقي والتمثيلي.

الفصل بين الحيزين قائم في اللغة العربية، كما رأينا، إذ يتقدم الحيز العلاقي على الحيز التمثيلي أو يحضنه كما تبين ذلك الترسيمتان (10) و(16) المكررتين هنا للمناسبة:

(10) [[م1 م2 م3 [...]]] جملة

(16) [[صدر: م1 م2 م3] [وسط] [عجز]] جملة

أما في اللغتين الأنجليزية والفرنسية، فإن الفصل بين الحيزين غـــير واضح، بحيث إذا استثنينا تخصيص الموقع الصدر الوحيـــد م1 لعناصـــر علاقية كانت باقي المواقع تشكل "ملكا مشاعا" للوارد من البنية التحتية علاقيا كان أم تمثيليا.

بناء على هذا تكون البنية الموقعية للجملة في الأنجليزية والفرنسية البنية (71):

(71) [علاقي: م1 [علاقي / تمثيلي]] جملة

الملاحظ أن الفصل بين الحيز العلاقي والحيز التمثيلي وعدم التداخل بينهما لا يتأتى في اللغات ذات الرتبة القَارَّة كاللغتين الأنجليزية والفرنسية تأتِّيه في اللغات ذات الرتبة "الحرة" نسبيا كاللغة العربية، كما يلاحظ وجود علاقة دالة بين حرية الرتبة والإعراب بقدر يمكِّن من القول إن الفصل بين الحيّزين أورد في اللغة الإعرابية منه في اللغة غير الإعرابية.

نقترح السلمية (72) لتبيان مدى الاستجابة للمعيار (9هـ):

(72) لا تداخل بين العلاقي والتمثيلي في البنية الصرفية-التركيبية

اللغة العربية 〉 اللغتان الأنجليزية والفرنسية... 〉

+ −

وإذا ما صحت العلاقة التي أومأنا إليها بين عدم التداخل وطبيعة اللغة (إعرابية حرة الرتبة / غير إعرابية قارة الرتبة) أمكن تعميم السلمية (72) لتصبح كالتالي:

(73) لا تداخل بين العلاقي والتمثيلي في البنية الصرفية - التركيبية

اللغات الإعرابية حرة الرتبة 〉 اللغات غير الإعرابية قارة الرتبة〉

+ −

لعل من المفيد أن نختم هذا المبحث بوضع السلمية التالية التي ترتب اللغات بالنظر إلى شفَّافيَّة انعكاس المستويين العلاقي والتمثيلي في المستوى الصرفي-التركيبي ودرجاها:

(74) شفَّافيَّة الانعكاس

سري لانكاية 〉 عربية 〉 كيشيوا 〉فرنسية، أنجليزية〉

يستدعي الترتيب الوارد في السلمية (74) ملاحظتين هامتين:

أولاهما، أنه ترتيب عام إجمالي، يمكن أن يُفرَّع إلى ترتيب أخص وأدق يميّز بين اللغات المغلّبة لشَفَّافية التركيب على شَفَّافية الصرف كاللغة العربية واللغات التي تفعل عكس ذلك كلغة كيشيوا واللغات التي لا تغليب فيها لتركيب على صرف ولا لصرف على تركيب كاللغتين الأنجليزية والفرنسية؛

وثانيتهما، أنه ترتيب لا يمكن أن يُعدَّ نهائيا ولا مطلقا بحال من الأحوال إذ يستمد وروده وقيمته النسبية من المقارنة بين عدد محدود من اللغات وإن تباينت هذه اللغات.

2. الانعكاس البنيوي وتنميط الخطابات

من الأطروحات المدافَع عنها هنا أن تنميط اللغات وتنميط الخطابات يمكن أن يعتمَد فيهما نفسُ المبدإ وأن لهذا التوحيد في المبدإ من المزايا النظرية والمنهجية ما لا يحتاج إلى تدليل.

سنحاول في هذا المبحث أن نبين مدى ما يمكن أن يفيده تنميط الخطابات إغناء ودقة من اعتماد الانعكاس البنيوي وشَفَّافيته ودرجات شَفَّافيته.

1.2. تنميطات متداولة

عُني بدراسة الخطاب قديما وحديثا من حيث طبيعته وبنيته ومن حيث تصنيفه في حقول متعددة متباينة منها مِثَالاً لاَ حَصْراً النقد الأدبي والشعرية والبلاغة و"تحليل الخطاب" والسيميائيات واللسانيات (الوظيفية منها على الخصوص) والتداوليات... يمكن أن نُرجع المعايير التي اعتمِدت إلى حد الآن في تصنيف الخطابات وجعلها

أنماطا محددة إلى ثلاثة معايير كبرى: **المجال والقصد** (أو الهدف) **والآلية والقناة.**

من حيث المجال، يُتداول، كما هو معلوم، نعت الخطاب بالأدبي والعلمي والسياسي والايديولوجي والإشهاري والإعلامي وغير ذلك.

ومن حيث القصد يمكن أن يكون الخطاب إخباريا أو إقناعيا أو تضليليا أو تفسيريا أو يكون بالعكس يرمي إلى التعمية والإلغاز.

ومن حيث الآلية يُميَّز بين الخطاب السردي والخطاب الوصفي والخطاب الحجاجي...

أما من حيث القناة (أو النسق التواصلي المستخدَم) فالخطاب إما لغوي أو صوري (رسم، شريط...) أو إشاري أو خطاب يزاوج بين أكثر من قناة واحدة (المتوكل (2011)).

ملاحظتان اثنتان تفرضان نفسهما هنا:

أولاهما أن هذا التنميط ليس بالتنميط الصارم، إذ إن نفس المجال يستخدم أكثر من آلية كما أن نفس الآلية يمكن أن تعتمد في أكثر من مجال واحد كما هو الشأن مثلا في آلية الحجاج التي يمكن أن نقول عنها إنها حاضرة ولو بدرجات متفاوتة (أعلاها في ما يسمى "الخطاب الحجاجي") في كل أصناف الخطاب بما في ذلك ما يُنعت بالخطاب "العادي" (أو الخطاب "اليومي").

وثانيتهما، أن قائمة المعايير تظل مفتوحة. في هذا الباب بالذات، نقترح إضافة معيار تنميطي إضافي يمكن أن نصطلح على تسميته معيار "الكيفية"[5] وهو نفس معيار الانعكاس البنيوي الذي فصَّلنا القول في الفصل السابق في أهم جوانبه وكيفية اشتغاله.

2.2. إرهاصات من أصول الفقه

من المعلوم أن مفهومي "الالتباس" و"تعدد القراءات" تُدُووِّلا كثيرا في اللسانيات والسيميائيات لكنهما لم يُستخدما، في ما نعلم، معيارا لتنميط الخطابات.

في المقابل، اعتنى المفكرون اللغويون العرب القدامى (الأصوليون منهم خاصة) بوجوه الدلالة ودرجات تجليها في الخطاب وأقاموا على ذلك سلمية للالتباس يمكن صوغها على الشكل التالي (المتوكل (1982) و(2006)):

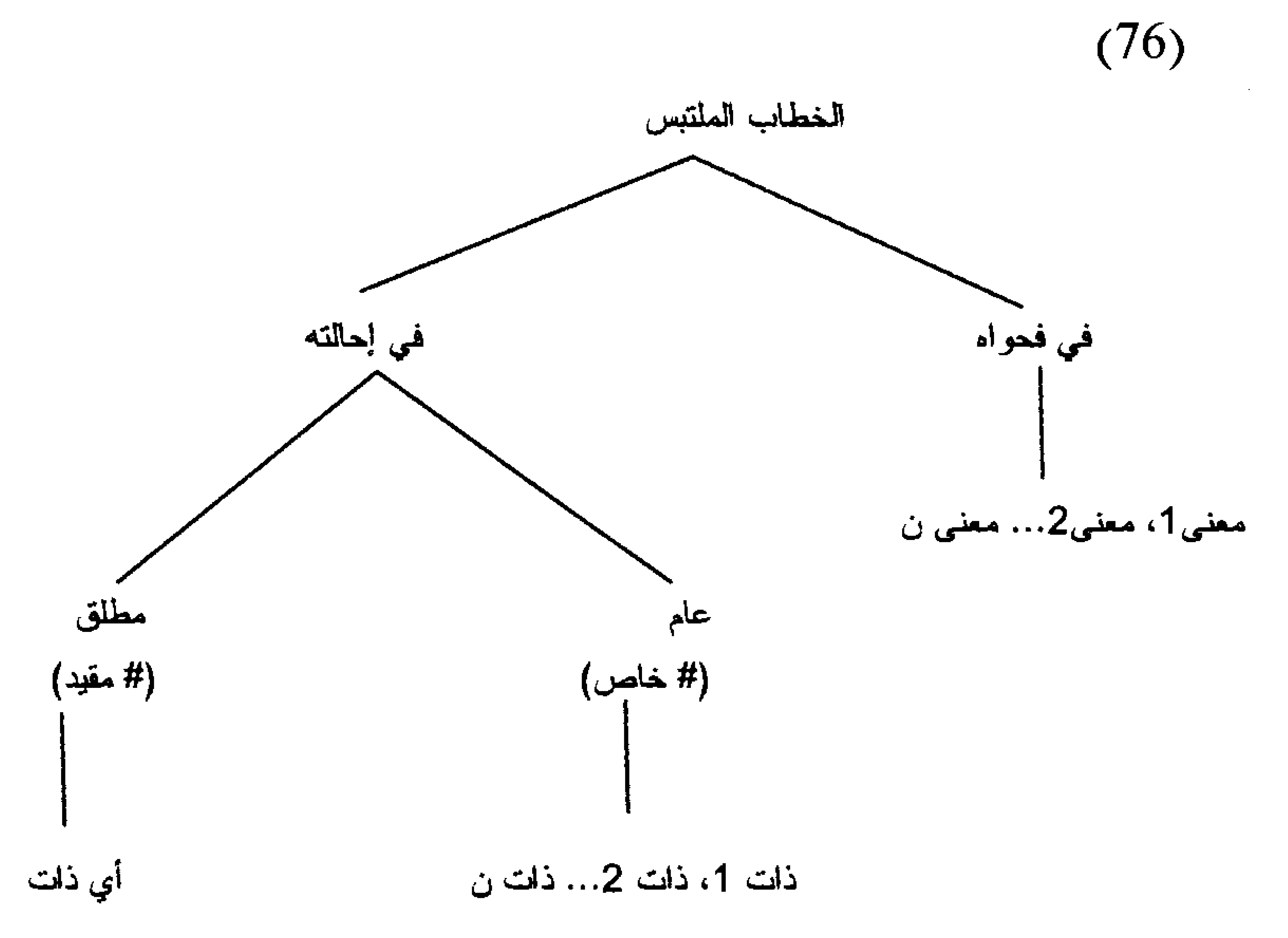
(75) ظاهر > محتمل > مُجْمَل > خفي

تُقرأ السلمية (75) على أساس أن الخطاب من حيث التباسه وتدرجه في الالتباس إما "**خفي**" (أو "متشابه") لا يزاوله التباسه ولا يمكن أن يؤوّل بحال أو "**مجمل**" متعدد القراءات دون مرجِّح لاحداها أو "**محتمل**" إحدى قراءاته أقرب من الأخرى أو "**ظاهر**" شَفَّاف لا التباس فيه.

ويكمن الالتباس، حسب أصوليينا، في فحوى الخطاب فتتعدد معانيه أو في الإحالة، فيكون إما "**عاما**" يحيل على أكثر من ذات واحدة (في مقابل "**خاص**") أو "**مطلقا**" محيلا على أي ذات دون تحديد (في مقابل" **مقيد**).

بيان هذا التصنيف في الترسيمة التالية:

(76)



لن ندخل في تفاصيل الدراسة الأصولية للخطاب وطبيعته وأصنافه ونكتفي بالإحالة إلى مضان هذه الدراسة في أدبيات أصول الفقه وما قمنا به من محاولة في إعادة قراءتها على ضوء الدرس اللساني الحديث (المتوكل (1982) و(2006)).

ما كنا نرمي إليه في الواقع بهذا التذكير هو القول بأن اقتراحنا للانعكاس البنيوي مبدأً ومعياراً لتنميط الخطابات من حيث ما أسميناه هنا "الكيفية" كان بالأساس من وحي اطلاعنا على بعضٍ من الفكر الأصولي ومحاولة تحيينه واستثماره.

3.2. الانعكاس البنيوي: من اللغة إلى الخطاب

1.3.2. الخطاب الشَّفَّاف/الخطاب الكاتم

نعرِّف الخطاب الشَّفَّاف هنا بأنه الخطاب الذي يستجيب لمقتضيات معايير المصفوفة (77):

(77) الخطاب الشَّفَّاف

أ- لا التباس

ب- لا طيّ

ج- لا انعراج

د- لا تداخل خطابيا

انطلاقا من المعايير الواردة في هذه المصفوفة يمكن أن نقيم تنميطا للخطابات من حيث شَفَّافِيَّتها نميز فيه أولا بين **الخطاب الشَّفَّاف** والخطاب **الكاتم** وثانيا داخل الخطاب الكاتم بين أربعة أنماط فرعية هي **"الخطاب الملتبس" والخطاب المطوي" والخطاب المُنْعَرِج"** و**"الخطاب المتداخل"**: بيان هذا التنميط في الترسيمة التالية:

(78)

الخطاب
- خطاب شَفَّاف
- خطاب كاتم
  - خطاب ملتبس
  - خطاب مطوي
  - خطاب منعرج
  - خطاب متداخل

لنرصد الآن أهم خصائص أنماط الخطاب الكاتم الأربعة.

2.3.2. الخطاب الملتبس

نود في البدء الإشارة إلى أننا نستخدم هنا مصطلح الالتباس بمفهومه العلمي المحض دون أي حمولة قدحية. الالتباس في تصورنا هنا كما في سابق أبحاثنا (المتوكل (1995)) هو تحمُّل خطاب ما (جملة،

مركب اسمي، نص...) لأكثر من قراءة واحدة. الجملة (79) مثلا جملة ملتبسة لأنها يمكن أن تُقرأ قراءتين اثنتين فتكون مرادفة للجملتين (80 أ-ب) كلتيهما:

(79) أنا معجب حقّاً بعيون هند

(80) أ- أنا معجب حقّاً بمقلتي هند

ب- أنا معجب حقّاً بجواسيس هند

مكمن الالتباس مكمنان: مكمن علاقي ومكمن تمثيلي. الالتباس الحاصل في المستوى العلاقي يكون عامة في تعدد إحالات الفعل الإحالي الواحد كأن تكون الإحالة "عامة" (في مقابل "خاصة") كما هو الشأن في الجملة (81أ) أو "مطلقة" (في مقابل "مقيدة") كما هو حاصل في الجملة (82أ):

(81) أ- احترام **الأب** واجب

ب- قابلت **أبا** أحد الطلاب

(82) أ- تريد هند أن تكاتب **مغربيا** (أي مغربي)

ب- تكاتب هند **مغربيا** (بعينه)

أما الالتباس التمثيلي (الدلالي) فيكمن في تضمن الخطاب لمفردة تحمل معنيين (أو أكثر) متواردين دون قرينة ترجيح. مثال هذا الضرب من الالتباس الجملة (79).

3.3.2. الخطاب المطوي

تخضع آليات الخطاب (السردية، الوصفية، الحجاجية) لشرط يمكن أن نصطلح على تسميته هنا "شرط التمام" يقتضي أن يُلِم الساردُ في سرده بكل مراحل الواقعة موضوع السرد وأن يذكر المُحَاجّ جميع عناصر حجاجه (دعاوى وحجج ونتائج). لكنه من غير النادر أن يخرق

شرط التمام هذا ويكون ذلك عن طريقتين: أن يُقفز على حلقات من السلسلة السردية أو السلسلة الحجاجية أو تُجَمَّع حلقات إحدى السلسلتين في فعل خطابي واحد.

من أمثلة القفز والتجميع الجملتان (83 ب-ج) و(84 أ -ج) على التوالي[6]:

(83) أ- من اجتهد فاز، اجتهد عليٌّ، إذن علي سيفوز

ب- من اجتهد فاز، إذن علي سيفوز

ج- اجتهد علي، إذن علي سيفوز

(84) أ- بما أن من اجتهد يفوز فإن عليا سيفوز

ب- بما أن عليا اجتهد فإنه سيفوز

ج- بما أن من يجتهد يفوز وأن عليا اجتهد فإنه سيفوز

4.3.2. الخطاب المنعرج

من شَفَّافية الخطاب أن يكون مباشرا يُلقَى إلى مخاطب واحد، وقد يخرق هذا الشرط فينعرج الخطاب ويُلقى إلى مخاطبين اثنين مخاطب صريح ومخاطب ضمني. هذا ما نجده حاصلا في الجملة (85) مثلا الملقاة في حضور طبيب لا يعيره المتكلم كبير قيمة هو المعني الفعلي بالخطاب:

(85) **بكر لخالد:** أصبح يزاول الطب كل من هب ودب

ويلحق الانعراج فحوى الخطاب نفسه في المقامات التي يكون فيها الفحوى المقصود تبليغه غير الفحوى الحرفي كما هو الشأن في الجملة (86أ) المرادفة مقاميا للجملة (86ب):

(86) أ- ما أشد الحرارة اليوم!

ب- شغِّل المُكيّف!

نقترح أن تُرصَد ظاهرةُ الانعراج في نحو الخطـــاب الـــوظيفي بالتأشير إلى المخاطب بمؤشرين ((ط1) و(ط2)) إذا كان الأمر يتعلق بجمل من قبيل (85) وبالمزاوجة في المستوى العلاقي بـــين فحـــويين خطابيين. ويمكن أن نكتفي بالتأشير في المستوى العلاقـــي، داخـــل المكون النحوي، إلى مخاطب واحد وفحوى خطابـــي واحد، علـــى أن يُرصد المخاطب الثاني والفحوى الخطابـــي الثـــاني في المكـــون السياقي.

5.3.2. الخطاب المتداخل

غير بعيد عن الانعراج من حيث المخاطب المقصود بالخطـــاب، يمكن أن يتداخل خطابان اثنان مصدرهما متكلمان اثنـــان في خطـــاب واحد، تحصل هذه الظاهرة في الخطاب المنقول بالخصوص وتوضـــيحها في المقارنة بين الجملتين (87 أ-ب):

(87) أ- **بكر**: لن أتزوج تلك الفتاة

ب- **هند**: قال بكر إنه لن يتزوج تلك **الفتاة المستهترة**

لا نعثر في أدبيات نحو الخطاب الوظيفي حاليا على مسطرة تكفل رصد ظاهرة التداخل الخطابـــي هذه. في الانتظار، نقتـــرح أن يمثـــل للخطاب المتداخل الوارد في الجمل التي من قبيل (87ب) كالتالي:

(88) [(خطاب2: [(خطاب1: [لن أتزوج تلك الفتاة]

(خطاب1))] (خطاب2: المستهترة (خطاب2))]

حيث خطاب 1 = الخطاب الأصل

خطاب 2: الخطاب الناقل

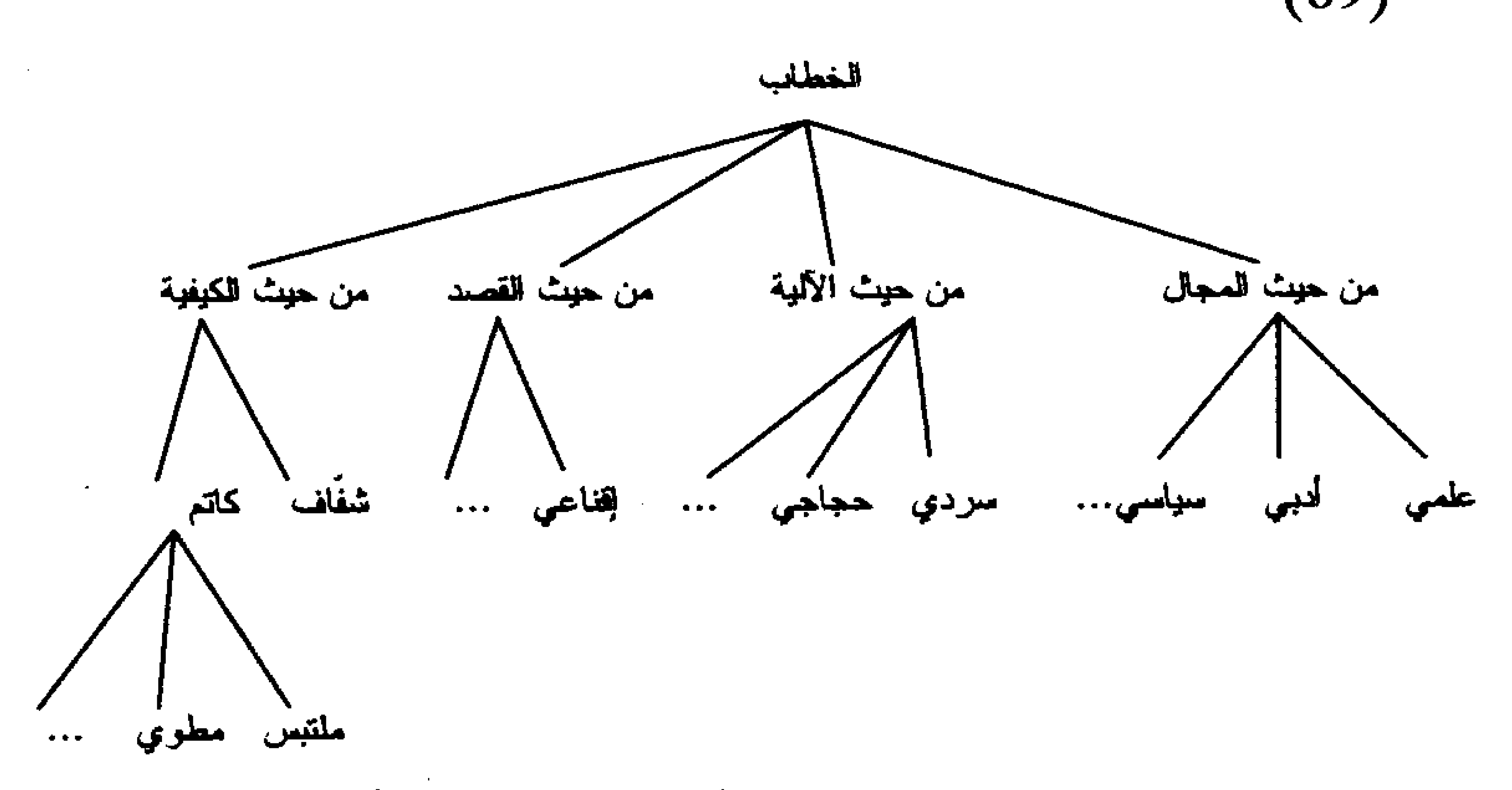
أهم ما يستدعي الانتباه في الترسيمة (88) أن الصفة "**المستهترة**" تنتمي إلى الخطاب الناقل لا إلى الخطاب الأصل.

ختما لهذه الفقرة نشير إلى أن شَفّافية الخطاب وكاتميته خاصيتان متدرجتان. لهذا يتوقع أن يشفّ الخطاب بقدر خلوه من دواعي الكتم وأن تزداد كاتميته بقدر ما يراكم من الأسباب. فالخطاب الملتبس المطوي أكثر كاتمية من الخطاب الملتبس والخطاب الملتبس المطوي المنعرج، مثلا، أكثر كاتمية منهما.

4.2. الانعكاس البنيوي والمعايير الأخرى

أول ما يُلْفَتُ النظر إليه في العلاقة القائمة بين معايير الشّفّافية والمعايير المعتمدة تقليدا في تصنيف الخطابات (المجال، الآلية، القصد) أن المعايير الأولى لا يمكن أن تحل محل المعايير الثانية، ما يمكن قوله هو أنها تضاف إليها فتصبح معايير تنميط الخطاب على النحو المبين في الترسيمة التالية:

(89)



فيما يخص التفاعل بين معيار الكيفية والمعايير الأخرى يمكن إيراد الملاحظات الأولية التالية:

1) من المجالات ما يقتضي الشّفّافية المثلى ويرفض أي نوع من الكاتمية. أعرف الأمثلة في هذا الباب الخطاب العلمي الذي يتطلب الخلو من كل التباس وطي وانعراج وتداخل.

2) في المقابل، تعمد بعض الأنماط الخطابية إلى التوسل بالكاتمية:

(أ) قد يصبح الطي في الخطاب السردي تقنية من تقنياته كأن يُقفز على بعض حلقات السلسلة السردية الوسطى أو أن يُقفز إلى الحلقات الأخيرة من هذه السلسلة. ولعل نفس الأمر ممكن حصوله في الخطاب الحجاجي إذا تبين أن الطي يصبح استراتيجية من استراتيجيات الحجاج.

(ب) يستخدم كل من الالتباس والانعراج المقصودين كتقنيتين من تقنيات الخطاب الفني (الأدبي...) من ذلك ما دُرس في السيميائيات الأدبية في إطار ظاهرة "ازدواج التشاكل"، ظاهرة تحمل الخطاب الواحد لقراءتين ("تشاكلين") تحدد كلا منهما وتعلن عن كل منهما متوالية من السمات. في نفس الصدد، يمكن أن تعد مختلف الصور البلاغية (استعارة، كناية...) الواردة في النص الأدبي نوعا من التعبير المنعرج العادل عن أسلوب المباشرة.

(ج)أما التداخل بين الخطاب الأصل والخطاب الناقل له فهو من إحدى تقنيات وسائل الإعلام أثناء الحملات الإعلامية لصالح جهة ضد أخرى. من عينات الخطاب الإعلامي المتداخل الجمل التي من قبيل (90ب):

(90) أ- **دولة من الدول:** نطالب بوضع حد لهجوم قوى التحالف.

ب- **قناة إخبارية:** تطالب الدولة "الفلانية" بوضع حد لهجوم قوى التحالف **الاستعماري الغاشم.**

5.2. شَفَّافية الخطاب/شفَّافيَّة اللغة

يتبين من المقارنة بين مصفوفتي المعـــايير (9) و(77) أن معـــايير شَفَّافية الخطاب ليست ذات معايير شَفَّافية اللغة.

عدم التماثل بين المصفوفتين هذا أمر طبيعي ومتوقع إذ إن شفَّافية اللغة وكاتميتها متعلقتان بنسق اللغة ذاته ولا دور للمتكلم/ المخاطـــب فيه، في حين أن شفَّافية الخطاب أو كاتميته أمر إرادي اختياري يصـــدر عن منتج الخطاب. فالمطابقة والصـــرف المســـتقل والزحزحـــة مـــثلا خصائص للغة في مرحلة (سانكرونية) من مراحل تطورها تفرض على مستعمليها، في حين أن الالتباس والطي والانعراج والتداخل عمليـــات فردية يقوم بها منتج الخطاب حين يشاء. الفارق بين خصائص الكاتمية في الخطاب وخصائص الكاتمية في اللغة، بتعبير آخر، يكمن في "إلغائية" الكاتمية الأولى. فبينما يمكن رفع التباس خطاب ما أو بسط طيه أو إزالة انعراجه أو تداخله، لا سبيل لمنع المطابقة أو الصهر الصرفي أو التداخل الزمني أو غير ذلك في لغة من خصائصها المطابقة والصـــهر الصـــرفي والتداخل الزمني.

مع ذلك يمكن أن تُردَّ معايير كاتمية الخطاب ومعايير كاتميـــة اللغة إلى مبدإ واحد: مبدإ انعكاس أكثر من عنصر تحـــتي علاقـــي أو تمثيلي في بنية صرفية - تركيبية واحـــدة، مبـــدإ "المتعـــدد في الواحد".

سؤال أخير في نهاية هذا المبحث نود إلقاءه على عموم الباحثين في شؤون اللغة والخطاب: هل ثمة علاقة بين شَفَّافية الخطـــاب وشَـــفَّافية اللغة؟ هل الخطاب في لغة شَفَّافة أشفّ منه في لغة كاتمة؟ هل كاتميـــة الخطاب من كاتمية اللغة؟ هل الالتباس، مثلا، أورد وأيسر في لغة ذات صرف صاهر منه في غيرها؟

خلاصة:

يمكّن الانعكاس البنيوي من حيث حيوزة ووسائله ودرجات شَفَّافيته من المقارنة بين لغات متباينة ومن الإسهام في تنميطها.

نفس المبدإ يمكن اعتماده في المقارنة بين الخطابات وتنميطها من حيث كيفية الانعكاس بردها إلى خطاب شَفَّاف يقابله خطاب كاتم تكمن كاتميته في التباسه أو طيه أو انعراجه أو تداخله. في اتجاه مواصلة تمحيص ورود هذا المبدإ، نختبر في الفصل الموالي كيفية اشتغاله ومدى فاعليته وإجرائيته في رصد التطور اللغوي.

الهوامش

(1) رائز ورود وظيفتي الفاعل والمفعول (باعتبارهما وظيفتين تركيبيتين) حسب نظرية النحو الوظيفي إمكان إسناد كل وظيفة منهما إلى أكثر من حد واحد، إلى غير الحد – المنفذ بالنسبة إلى الفاعل وإلى غير الحدّ–المتقبل بالنسبة إلى المفعول.

(2) انظر التفاصيل في بحث الزهري (الزهري (2009))

(3) ينسحب عدم استقلال الصرف في اللغة العربية على ظاهرة الضمائر "الفارغة" التي لا مصدر لها في البنية التحتية إن علاقيا أو تمثيليا، لكن هذا لا يصدق على ظواهر أخرى سبق أن بحثنا فيها (المتوكل (2005)) مثل الحالة الإعرابية النصب التي تسند إلى فاعل الجملة ورتبة هذا المكون اللتين تحدّدهما الأداة "إِنَّ" في التراكيب التي من قبيل (أ، ب):

أ- عادت هند

ب- إن هندا عادت

(4) راجع تفاصيل ظاهرة تصعيد الفاعل -إلى- الفاعل وظاهرة تصعيد الفاعل – إلى- المفعول في (المتوكل (1987)) حيث أفردنا فصلا للتراكيب التي من قبيل (ii أ-ب) و(iii أ-ب):

(ii) أ- يبدو أن هندا سعيدة

ب- تبدو هند سعيدة

(iii) أ- أظن أن هندا سعيدة

ب- أظن هندا سعيدة

(5) نستعمل مصطلح "الكيفية" هنا بالمفهوم الذي يأخذه عند جرايس (جرايس (1975)) باعتباره إحدى "مسلمات الحوار".

(6) نعدُّ "التجميع" نوعا من الطي على أساس أن الجمل التي من قبيل (83 أ-ج) تتضمن أفعالا خطابية عدة في حين أن الجمل التي من قبيل (84 أ-ج) لا تتضمن إلا فعلا خطابيا واحدا.

الفصل الثالث

الانعكاس البنيوي وتطور اللغات

0. مدخل

تطور اللغات وتنميطها ليسا في الواقع إلا جانبين لنفس العملية تجمع بينهما المقارنة إما بين لغتين أو بين مرحلتين من تاريخ لغة واحدة. من أنجع الوسائل التي يمكن أن تكفل رصد هذا التلازم أن تستخدم نفس الآلية في كلٍّ من تنميط اللغات والتأريخ لها.

في هذا الاتجاه، نروم هنا استكشاف مدى ورود الانعكاس البنيوي في رصد التطور ورودَه في التنميط.

1. التطور والحقل اللغوي العربي

تتواجد في الحقل اللغوي العربي[1] لغة مشتركة هي اللغة العربية الفصحى ولغات خاصة محلية هي الدوارج العربية. هذا الرصد للحقل اللغوي العربي رصد عام يمكن وينبغي تدقيقه على النحو التالي:

I) يُميَّز غالبا بين عربيتين مشتركتين: "عربية فصحى" و"عربية فصيحة". يُقصد بالعربية الفصحى ما يصطلح المستشرقون على تسميته "العربية الكلاسيكية"، وهي لغة القرآن الكريم والأدب العربي القديم شعره ونثره. أما العربية الفصيحة أو "العربية المعاصرة المعيار" فإنها لغة الإنتاج الثقافي الحديث ولغة الإدارة والإعلام وغير ذلك في البلاد العربية.

II) تشكل العربية الفصيحة والعربيات الدوارج حقبا من تطور العربية الفصحى إلا أنها تشكل في الوقت ذاته مستويات لغوية مختلفة تقوم داخل المجتمعات المعنية بالأمر بوظائف متمايزة.

وضع اللغة العربية، من هذا الجانب، يختلف عن وضع لغات أخرى كاللغات المنحدرة من اللاتينية (فرنسية، إسبانية، إيطالية، رومانية) التي أصبحت، بالنظر إلى رائز التفاهم، لغات مختلفة قائمة الذات بالنسبة إلى اللغة المصدر من جهة وبالنسبة إلى بعضها البعض من جهة ثانية[2].

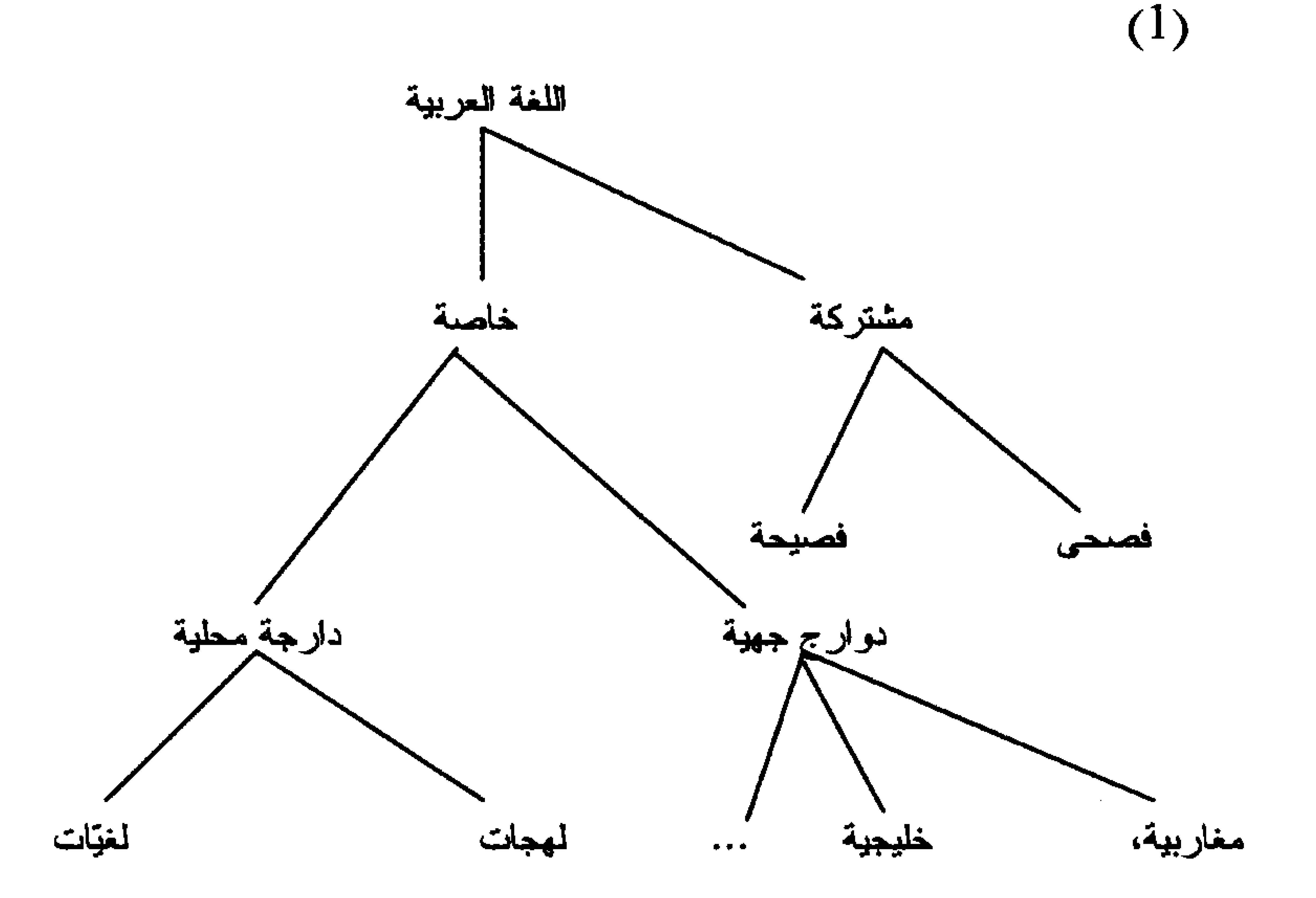
III) ليس لدينا مع الأسف تأريخ للغة العربية يرصد تطورها من فصحاها إلى دوارجها. ما يمكن أن نعتمده حين نعمد إلى عملية كهذه هي المستويات الثلاثة: الفصحى والفصيحة والدوارج الحالية.

IV) يمكن تقسيم الدوارج العربية، بالنظر إلى الاشتراك في بعض السمات (النطقية، المعجمية...)، إلى فئات جهية كالدوارج المغاربية والدوارج الخليجية.

V) ويمكن أيضا التمييز داخل كل دارجة بين "لهجات" و"لغيّات" بالنظر إلى المناطق وإلى الفروق الاجتماعية-الثقافية. مثال ذلك أن في الدارجة المغربية لهجات الشمال والشرق والجنوب ولهجات البوادي في مقابل لهجات الحواضر، كما أن فيها لغيَّات تختلف باختلاف الانتماءات الاجتماعية-الثقافية.

يمكن أن نلخص مكونات الحقل اللغوي العربي في الترسيمة التالية:

(1)



ما سيعنينا هنا بالدرجة الأولى هو رصد أهم معالم التطور الذي طرأ على آلية الانعكاس البنيوي أثناء الانتقال من العربية الفصحى/الفصيحة إلى العربيات الدوارج.

2. من آليات التطور اللغوي: الانعكاس البنيوي

كي نظل أوفياء للأطروحة التي ندافع عنها سنتتبع التغيير الحاصل في آلية الانعكاس البنيوي التي فحصنا ورودها في تنميط اللغات من حيث وسائلها أولا ومن حيث شَفّافيتها ثانيا.

1.2. تطور وسائل الانعكاس

سبق أن ثبت لدينا أن الانعكاس البنيوي، أي الانتقال من البنية التحتية بشقيها العلاقي والتمثيلي إلى سطح العبارة اللغوية، يتم بوسائل صرفية أو تركيبية أو تنغيمية. كما تبين لنا أن تسطيح المخصصات

يتولاه الصرف (مشفوعا بالتركيب أو التنغيم أو غير مشفوع بهما)، وأن تسطيح الوظائف الدلالية والوظائف التركيبية يتم عن طريق الصرف مبدئيا في حين يكفل التركيب تسطيح الوظائف التداولية.

لنتساءل الآن عن التغيير الذي يطرأ عبر تطور اللغة على طبيعة وسائل الانعكاس وعن كيفية توزيعها.

1.1.2. من صرف الصيغ إلى صرف الأدوات

يُميَّز عادة بين صرفين: صرف "**تأليفي**" وصرف "**تحليلي**". المقصود بالصرف الأول صرف اللغات الصاهرة أو الإلصاقية وبالصرف الثاني صرف اللغات التي تستخدم صرفات "حرة" أو أدوات للتعبير عما تعبر عنه اللغات الأخرى صهرا أو إلصاقا.

نستعمل هنا الثنائية صرف صيغ/صرف أدوات، وكان بالإمكان أن نستعمل إحدى ثنائيتي "الصرف المربوط"/ "الصرف الحر" أو "الصرف التأليفي"/ "الصرف التحليلي".

ثمة نُزوع عام يشمل العربية ودوارجها نحو الانتقال من صرف الصيغ إلى صرف الأدوات لتسطيح جُل المخصصات الواردة خاصة من المستوى التمثيلي على أساس أن المقصود بمصطلح الأدوات هنا كل الصرفات "الحرة" بما فيها "الأفعال المساعدة"(3).

من المخصصات التي انتقل التعبير عنها من الصيغ إلى الأدوات مخصص المحمول ومخصص الحد.

(1) تستعمل العربية الفصحى/الفصيحة كما هو معلوم أفعالا مساعدة (أو "أفعالا ناقصة" بالمصطلح القديم) للتعبير عن بعض قيم المخصص الجهي كالشروع والمقاربة (بدأ، شرع، طفق/كاد، أوشك، قارب...) والتحوّل (أصبح، بات،

أضحى، أمسى...). أصل هذه الأفعال المساعدة محمولات تامة الدلالة (تعبر عن وقائع كباقي المحمولات) خضعت لمسلسل "التحجر" فأفرغت من مدلولها الأصلي وانتقلت بذلك إلى وضع مجرد أدوات.

ليس من الضروري أن يكون أصل هذه الأدوات محمولات أفعالا. فثمة صفات يمكن أن تخضع لنفس مسلسل التحجر. من ذلك الصفتان "غادي" و"ماشي" اللتان أصبحتا تدلان في العربية الدارجة المغربية على المستقبل:

(2) دارجة مغربية

غادي/ماشي نعطيك الفلوس غدّا

"سوف أعطيك مالا غدا"

نفس الانتقال إلى التعبير عن مخصص المحمول الزمني، تعويضا "للسين و"سوف" خضعت له "راح" المصرية:

(3) دارجة مصرية

راح أدّيك فلوس بكره

"سأعطيك مالا غدا"

في نفس الاتجاه تحجرت الصفتان "عمَّال" في الدارجة المصرية و"قاعد" في الدوارج المغاربية للتعبير عن مخصص المحمول الجِهي "الدّوام" (أو "التكرار"):

(4) دارجة مصرية

عمال أفكّر فيه

لا أتوقف عن التفكير فيه"

(5) دارجة تونسية/مغربية/ليبية

قاعد يطالب حتى ياخذ حقه

"لن يتوقف عن المطالبة إلى أن ينال حقه"

ومن الأسماء التي لحقها التحجر اللاحق الجهي الدال على مخصص الدوام "**دأبا**" الذي أصبح في الدارجة المغربية يُستخدم للدلالة على المستقبل القريب:

(6) دارجة مغربية

دابا نعطيك الفلوس

"سأعطيك مالا الآن"

لمسلسل التحجر في هذا الباب مراحل أقصاها أن ينقلب الفعل أو الصفة إلى مجرد حرف أو لاصقة. قارن الجملتين (2) و(3) بمرادفتيهما (7) و(8) مثلا:

(7) **غنعطيك** الفلوس غدا

(8) **حادّيك** فلوس بكره

وفي الشأن نفسه قارن بين الجملتين الشاميتين التاليتين:

(9) دارجة شامية (لبنانية)

أ. مين **عمال** يدق عبابي؟

ب. مين **عمـ**ـبيدق عبابي؟

"من الذي لا يتوقف عن دق بابي"؟

من اللافت للنظر أن انتقال بعض الأفعال الدالة على التنقل المكاني إلى الدلالة على السمات الزمنية (سمة المستقبل القريب خاصة) يكاد يشكل نزوعا عاما تتقاسمه اللغات[4] (أو على الأقل عدد من اللغات). في مقابل "راح" و"غادي" نجد في اللغتين الأنجليزية والفرنسية الفعلين "to go" و"aller":

(10) أ- I am **going to** give you some money

ب- Je **vais** vous donner de l’argent

2) ومن باب العدُول عن الصيغ إلى الأدوات أيضا استعمال دوارج عربية (الدوارج المغاربية على الخصوص) لمحدِّد عددي عوضا عن صيغة المثنى. من أمثلة ذلك:

(11) دوارج مغاربية

شريت زوج كتب

"اشتريت كتابين"

في هذه الظاهرة تلتقي الدوارج العربية(5) باللغتين الأنجليزية والفرنسية اللتين من المعلوم أن مخصص التثنية يتحقق فيهما بواسطة المحددين "two" و"deux" على التوالي:

(12) أ- I bought **two** books

ب- J'ai acheté **deux** livres

2.1.2. من الصرف إلى التركيب

النزوع الذي عُنينا به في الفقرة السابقة نزوع داخلي يهم الصرف ووسائله لا يتعداه. أما النزوع الذي نهتم به الآن فهو نزوع يتعلق بالانتقال من الصرف ككل إلى التركيب. والتركيب في منظورنا هنا إما ترتيب المكونات (داخل الجملة أو داخل المركب) أو بنيات مخصوصة.

1) أشهر ظواهر الاستعاضة عن الصرف بالرتبة الانتقال من تحقق الوظائف بواسطة الإعراب إلى تحققها بواسطة الموقع، حصل هذا الانتقال في كل الدوارج العربية حصوله في اللغات المنحدرة من اللاتينية كالفرنسية مثلا.

(13) في الدوارج العربية (كما في اللغة الفرنسية) أصبح يُميَّز بين الفاعل وغيره بموقعه (قبل الفعل أو بعده). من أمثلة ذلك في الدارجتين المغربية والمصرية:

(14) دارجة مغربية

أ. تلاقى **خالد** ابراهيم

ب. خالد تلاقى ابراهيم

"التقى خالد ابراهيم"

(15) دارجة مصرية

أ. التقى **خالد** ابراهيم

ب. **خالد** التقى ابراهيم

"التقى خالد ابراهيم"

في نفس الاتجاه، تم الاستغناء عن صيغة "**أفعِل ب**" في العربية الفصيحة نفسها ثم عنها وعن صيغة "**ما أفعَل**" وأصبح مخصص التعجب يتحقق بواسطة الرتبة:

(15) عربية فصيحة

جميلة هذه الفتاة!

(16) دارجة مغربية

زوينة هاد البنت!

"ما أ جمل هذه الفتاة!"

(17) دارجة مصرية

جميلة البنت دي!

"ما أجمل هذه الفتاة!"

2) لتحقيق مخصص التعجب، تستعيض بعض الدوارج العربية عن صيغة التعجب بتراكيب مخصوصة إلى جانب استراتيجية الرتبة. من هذه التراكيب التعجبية ما يلي:

(18) دارجة مغربية

أ. **شحال** زوينة هاد البنت!

ب. **ولايْنّي** زوينة هاد البنت!

"ما أجمل هذه الفتاة!"

(19) دارجة مصرية

أ. شفت **حتّة** بنت!

ب. شفت بنت **إنما ايه!**

"رأيت فتاة ما أجملها!"

(20) دارجة لبنانية

أ. عيونك **شو** حلوين!

ب. "**يخرب بيت** عيونك **شو**حلوين"

"ما أجمل عينيك!"

3.1.2. من الصرف إلى التنغيم

سبق أن بينا أن التنغيم تنغيمان: تنغيم يصاحب الوسائل الصرفية والتركيبية في الانعكاس البنيوي دعما لها وتنغيم يكفل وحده تحقيق سمة من السمات التحتية العلاقية أو التمثيلية.

بعد الاستغناء عن مجموعة من الوسائل الصرفية (أدوات على الخصوص)، أصبح التنغيم يضطلع بمفرده بتحقيق السمات التي كانت تكفل تحقيقها الصُّرفات المستغنى عنها.

من أبرز مظاهر الانتقال من الصرف إلى التنغيم ما حصل في مجال القوة الإنجازية. ولنأخذ مثالا لذلك القوة الإنجازية الاستفهام (المتوكل (1986) و(2010)).

يتحقق الاستفهام في العربية الفصحى/الفصيحة بواسطة ثلاث أدوات هي "**الهمزة**" و"**هل**" و"أو". ويحكم تعاقب هذه الأدوات الثلاث "التوزيعُ التكاملي" التالي:

1) تختص الأداة "هل" بتحقيق الاستفهام المنصبّ على الفعل الخطابي بكامله كما يتبين من المقارنة بين الجملة (21أ) والجملتين اللاحنتين (21ب-ج):

(21) أ- هل هند آتية؟

ب-* هل **هند** آتية أم زينب؟

ج- *هل آتية هند أم غير آتية؟

أما "**الهمزة**" فدائرة استعمالها أوسع إذ ترد للاستفهام عن الفعل الخطابي ككل أو عن الفعل الإحالي أو الفعل الحَمْلِي منه:

(22) أ- أهند آتية أم لا؟

ب- أ **هند** آتية أم زينب؟

ج- أ **آتية** هند أم غير آتية؟

2) اختصاص الأداة "أوَ" يكمن في استعمالها حين تكون القوة الإنجازية الفعلية "إنكارا" كما هو الشأن في الجملة التالية[6]:

(22) **أو** تحارب ذويك؟!

أثناء الانتقال إلى العربيات الدوارج سقطت الأداتان "**الهمزة**" و"**هل**" من الاستعمال وتم تعويضها إما بأداة أخرى كما حصل في الدارجة المغربية أو بالتنغيم وحده كما هو الشأن في الدارجة المصرية. من أمثلة ذلك:

(23) دارجة مغربية

واش رجع خالد من السفر؟

"هل رجع خالد من السفر؟"

(24) دارجة مصرية

خالد رِجع من السفر؟

"هل رجع خالد من السفر؟"

أما الأداة "أوَ" فسنعود إليها في فقرة قادمة.

إن الضمور الصرفي الذي اعترى تحقيق الاستفهام امتد كذلك إلى قوى إنجازية أخرى كالتحضيض والعرض والترجي التي أصبح التنغيم يتولى التعبير عنها في الدوارج العربية التي لم تعوّض ما فُقِدَ من أدوات، مثل ما فعلت الدارجة المصرية:

(22) دارجة مغربية

آجي!

"هلا أتيت!"

(23) دارجة مصرية

ماتيجي!

" هلا أتيت!"

4.1.2. من الرتبة إلى البنيات المخصوصة

من التحققات الممكنة لوظيفة بؤرة المقابلة في العربية الفصحى/ الفصيحة أن يحتل المكون الذي يحملها أحد مواقع الحيز الصدر في البنية الصرفية -التركيبية، الموقع م1 إذا كان شاغرا (لا تحتله أداة من الأدوات الصدور) أو الموقع م2 أو الموقع م3 إذا كان الموقع م2 مملوءا.

بعد أن تقلص الحيز الصدر في العربيات الدوارج لأسباب نبينها في الفقرة الموالية، أصبح تصدير المكون المبأر متعذرا كما يتبين من لحن الجملتين التاليتين مثلا:

(24) دارجة مغربية

* **خالد** تلاقيت

"**خَالِدًا** التقيت"

(25) دارجة مصرية

***خالد** التقيت

"**خالدا** التقيت"

بسقوط إمكان التصدير، لم يعد في مقدور العربيات الدوارج إلا اللجوء إلى تراكيب تبئيرية مخصوصة كالفصل والاستثناء. مرادفتا الجملتين (24) و(25) السليمتان هما الجملتان (26) و(27) والجملتان (28)و (29):

(26) دارجة مغربية

اللي تلاقيته خالد

"**الذي / من** التقيته خالد"

(27) دارجة مصرية

اللي التقيتُه خالد

"**الذي/ من** التقيته خالد"

(28) دارجة مغربية

ماتلاقيت **غير** خالد

" لم التق إلا خالدا"

(29) دارجة مصرية

ما التقيتش **غير** خالد

" لم ألتق إلا خالدا"

ملحوظة:

من الممكن أن يرد المكون "**خالد**" في أول العبارة اللغوية على أن يربط ضمير عود كما في الجملتين التاليتين:

(30) **خالد** تلاقيتـــه

(31) **خالد** التقيتـــه

إلا أن التراكيب التي من هذا القبيل تراكيب تتضمن جملة تامـــة ("**تلاقيته**، "**التقيته**"). بعد مكون "ربض" يحـــدد "مجـــال الخطـــاب" ("**خالد**")، المكون "**خالد**" في هذا الضرب من التراكيب لا يحتل موقعا من مواقع الحيز الصدر بل يقع خارج الجملـــة[7] (المتوكـــل (1985) و(2009) و(2010)).

5.1.2. من رتبة قبلية إلى رتبة بعدية

مجال الجملة في العربية كما سبق أن بينا رأس (فعـــل، اســـم...) مشفوع بحيزين: حيز قبلي (أو "صدر") وحيز بعدي (أو "عجز").

يحتل المواقعَ الصـــدور الثلاثـــة (م1 م2 م3) الأدوات الصـــدور (كأدوات الاستفهام والتحضيض والعرض...) وضـــمائر الاســـتفهام والمكونات المبأرة تبئير مقابلة والوجوه إلا إذا رَبَا عددُها عـــن الطاقـــة الإيوائية للحيز الصدر حيث يُزحلق آنذاك بعضها إلى الحيز العجز.

بفقدان الإعراب وانتقال تحقق الوظائف (الدلالية والتركيبية) من الصرف إلى الرتبة تقلصت سعة الحيز الصدر في الدوارج العربية وأصبح الوضع فيها شبيها بالوضع في اللغتين الأنجليزية والفرنسية وباقي اللغات ذات "الرتبة المحفوظة" بوجه عام.

بتقلص الطاقة الإيوائية للحيز الصدر وانعدام إمكـــان التصـــدير، تلجأ العربيات الدوارج إلى إحدى اســـتراتيجيتين: تعـــويض الرتبـــة بتراكيب مخصوصة كالفصل والاستثناء كما سبق أن بينـــا وزحلقـــة المكونات التي حقها التصدير إلى الحيز العجز.

في إطار الاستراتيجية الثانية عُولجت مَوْقَعَة ضمائر الاســـتفهام في الدارجة المصرية وبعض أدواته في الدارجتين الليبية والتونسية.

1) من الملحوظ، وكما سبق أن أشرنا إلى ذلـــك في مكـــان آخـــر (المتوكل (1986))، أن ضمائر الاستفهام في الدارجة المصرية تحتل الموقع الأخير في الجملة علـــى عكـــس مـــا يحصـــل في العربيـــة الفصحى/الفصيحة. قارن:

(32) دارجة مصرية:

أ. "العوازل زودوها حبتين
كل ساعة بيسألوني رحت **فين**، جيت **منين**"

ب-* العوازل زوّدوها حبتين
كل ساعة بيسألوني **فين** رحت، منين **جيت**"

"بالغ الحساد إذ يسألونني كل ساعة
أين ذهبت ومن **أين** أتيت"

يُستنتج من المقارنة بـــين المثـــالين (32أ) و(32ب) أن ضـــمير الاستفهام في الدارجة المصرية يُفضي إلى جمل ذات مقبولية دنيـــا إن لم تكن لاحنة إذا هو ورد في أول الجملة. ويصح هذا حـــتى في الكـــلام المنثور العادي الذي لا ضغط فيه لقافية:

(33) أ- حا قابلك بكره **فين**؟

ب-* **فين** حاقابلك بكره؟

"أين سأقابلك غدا؟"

كما يُستنتج من المرادف الفصيح للأمثلة المصرية أن ضمير الاستفهام في العربية الفصحى/الفصيحة ثابت التصدر إلا إذا أُريد بتأخيره ما يسمى "استفهام الصدى" كما في التراكيب التي من قبيل (34ب) حيث القوة الإنجازية "استغراب" أكثر منها محض سؤال:

(34) أ- لِنتقابل غدا في الشيراتون

ب- سأقابلك غدا **أين**؟!

2) يصدق ما قلناه هنا عن زحلقة ضمائر الاستفهام في الدارجة المصرية على موقعة أداة الاستفهام في الدارجتين الليبية والتونسية.

(أ) تنتهي الجمل الاستفهامية في الدارجة الليبية بأداة تنطق "وُ" كما في المثال التالي:

(35) دارجة ليبية

ما عطوكش فلوس - "**وُ**"؟!

"أوْ لم يعطوك مالا؟!"

من البين أن الأداة "**وْ**" ترد في آخر التراكيب الاستفهامية التي تكون قوتها الإنجازية الفعلية "استغرابا" أو "إنكارا" كما يتبين من المقارنة بين الجملة (35) والجملة (36) المقصود بها مجرد السؤال:

(36) ماعطوكش فلوس؟

"ألم يعطوك مالا؟"

(أ) في نفس الباب تلحق الهمزة الممدودة "آ" بالتراكيب الاستفهامية الحاملة للاستغراب أو الإنكار في الدارجة التونسية كما هو الشأن في المرادف التونسي (37) للجملة (35):

(37) دارجة تونسية

ماعطاوكش فلوس - آ؟!

"أو لم يعطوك مالا؟!"

إذا صح تحليلنا للمثالين الليبي والتونسي أمكن أن نقول إن الأداتين "وُ" و"آ" ليستا إلا بديلين دارجين للأداة "أوَ".

دعنا الآن نحاول أن نعلل هذا النزوحَ للمكونات من الحيز الصدر إلى الحيز العجز أثناء انتقال العربية إلى دوارجها. لتعليل هذه الظاهرة جوانب ثلاثة يمكن أن نلخصها كالتالي:

أولا، للحيز البعدي (ما بعد الرأس) من السعة ومن الطاقة الإيوائية ما ليس للحيز القبلي (ما قبل الرأس). إلى هذا المعنى قصد دِكْ(دك (1997أ)) وهو يعرض للمبادئ العامة التي تحكم ترتيب المكونات حيث أشار إلى أن الحيز البعدي "أكثر مضيافيَّة" من الحيز القبلي.

تنطبق هذه السمة لا على الحيز البعدي في الجملة فحسب بل كذلك على الحيز البعدي في المركب الاسمي.

ولعل من الأمثلة الممكن سوقها في هذا الباب نزوع محدّدات في بعض دوارج العربية إلى الانتقال من موقعها قبل رأس المركب (الاسم) إلى الحيز الذي يليه. من هذه المحددات اسماء الإشارة التي أصبحت تَزدوج وتحضن الرأس كما هو الشأن في الدارجة المغربية وفقا للترسيمة التالية (المتوكل (2010)):

(38) إشارة- اسم- إشارة(8)

بيان ذلك في المقارنة بين الجمل (39أ -ج):

(39) دارجة مغربية

أ. قريت **هاد** الكتاب

ب. قريت **هاد** الكتاب **هادا**

ج-* قريت الكتاب **هادا**

"قرأت هذا الكتاب"

أو تلي الرأس في جميع الحالات كما هـو الشـأن في الدارجـة المصرية[9] مثلا وفقا للترسيمة (40):

(40) أ- اسم - إشارة

ب-* إشارة - اسم

لنقارن:

(41) دارجة مصرية

أ. قريت الكتاب ده

ب. * قريت ده الكتاب

ثانيا، بتقلص الحيز الصدر وامتناع إيوائه للمكونات التي من حقها أن تتموقع فيه، يُصبح المجال الطبيعي والوحيد لاستقبال هذه المكونات هو الحيز العجز.

ثالثا، أشرنا في أحد أبحاثنا السابقة (المتوكل (1986)) إلى أن ثمـة تلازما ملحوظا بين موقع أداة الاستفهام وموقع ضمير الاسـتفهام إن تصدَّرت تصدَّر وإن تأخرت تأخر.

إذا صحت علاقة التلازم هذه بين الأداة والضمير أمكـن أن نعتمدها تعليلا مقبولا لنـزوح الضمير إلى آخر الجملة في الدوارج التي لم تعُدْ لها أداة[10] وتولى التنغيم فيها الدلالة على الاسـتفهام (علما بأن التنغيم في هذه الحالة يقع في آخر الجملة) كما هو الشأن في الدارجة المصرية (كما سبق أن رأينا). ويدعم هـذا التعليـلَ ورودُهُ في لغات أخرى كاللغة الفرنسية باعتبارها من اللغات التي أصبحت بعض استعمالاتها تستخدم التنغيم وحده في الاسـتفهام. لاحظ التناظر البنيوي بين الجملـة المصـرية (33أ) ومرادفتـها الفرنسية (42):

(42) Je te rencontrerai où ?

6.1.2. من التركيب إلى التنغيم

ليس ثمة حالات انتقال نهائي من تحقيق السمات التحتية (علاقية أو تمثيلية) بواسطة التركيب إلى تحقيقها عن طريق التنغيم.

ما يلاحَظ هو نزوع إلى تفضيل وسيلة التنغيم كل ما كان ذلك ممكنا.

مثالان يكفيان لتوضيح المقصود:

1) يُستخدم كثيرا النبر المشدد للدلالة على حمل مكون ما لبؤرة المقابلة بعد امتناع تصديره بدلا من فصله أو استثنائه.

تفضل إحصائيا التراكيب التي من قبيل (43) و(44) على التراكيب التي مثلنا لها بالجمل (27) و(28) و(29):

(43) دارجة مغربية

تلاقيت خالد (بنبر **خالد**)

"خالداً التقيت"

(44) دارجة مصرية

التقيت خالد (بنبر "**خالد**")

"خالدا التقيت"

2) غالبا ما يُعدَل في تحقيق التعجب عن الرتبة تقديما وتأخيرا إلى مجرد التنغيم، لذلك تفوق التراكيب التي من قبيل (45)، في الاستعمال اليومي، التراكيب التي من قبيل (16):

(45) دارجة مغربية

هاد البنت زوينة!

"ما أجمل هذه الفتاة!"

3) يذكّرنا العدول عن الرتبة إلى التنغيم المحض بما نجده حاصلا في اللغة الفرنسية حيث يُستعاض للتعبير عن الاستفهام بالتنغيم المتصاعد عن قلب رتبة الضمير الفاعل:

(46) أ- Viendras-**tu** me voir ?

ب- **Tu** viendras me voir ?

نجد العدول نفسه في اللغة الأنجليزية كما يتبين من الجملتين (47 أ-ب) المرادفتين للجملتين (46 أ-ب):

(47) أ- Will you come to see me ?

ب- You will come to see me ?

2.2. تطور كيفية الانعكاس

عبر الانتقال إلى الدوارج، لم ينحصر تطور الانعكاس البنيوي في وسائله بل لحق أيضا كيفيته من حيث شَفّافيته وكاتميته.

لرصد هذا التطور الكيفي، نتتبع ما ظل ثابتا من معايير الشّفّافية وما خضع للتغيير إن جزءا أوكلا.

1.2.2. الثابت

دعنا، بدءا، نذكر بمصفوفة معايير الشّفّافية:

(48) سمات الانتقال الشّفّاف

(أ) لا وظائف تركيبية

(ب) لا تَقَطُّعَ للمجال

(ج) لا زحزحة

(د) لا تأثير فونولوجيا في الرتبة

(هـ) لا تداخل بين العلاقي والتمثيلي في البنية الصرفية - التركيبية

(و) لا تكييف لمخصص الزمن

(ز) لا مطابقة بين الفعل والفاعل/الرأس والفضلة

(ح) لا صرف مستقلا

(ط) لا صرف صاهرا

ظلت الدوارج العربية محتفظة بالسمات (48ب) و(48د) و(48و) و(48ح) دون تغيير. فهي ترفض قطع المجال الواحد بما ليس منه:

(49) دارجة مغربية

أ. الراجل اللي غادي يركّب القفل جا

ب* الراجل جا اللي غادي يركّب القفل

"الرجل الذي سيركّب القفل أتى"

(50) دارجة مصرية

أ. الراجل اللي حا يركب القفل **جِه**

ب. *الراجل **جه** اللي حا يركب القفل

"الرجل الذي سيركب القفل أتى"

ولا تأثير فيها "للوزن الفونولوجي" في رتبة المكونات إذ يظل الضمير محتفظا بموقعه بعد الفاعل كما لو كان مركبا اسميا عاديا:

(51) دارجة مغربية

أ. شَفت **جارتنا**

"رأيت جارتنا"

ب. شَفت**ها**

"رأيتها"

(52) دارجة مصرية

أ. شُفت جارتنا

"رأيت جارتنا"

ب. شفتــ**ها**

"رأيتها"

والدوارج العربية لا تخضع (كالعربية الفصحى/الفصيحة) لتكييف المخصص الزمني إذ إن زمن الخطاب الأصل يحتفظ به في خطاب النقل دون تغيير.

شاهد ذلك في الأمثلة التالية:

(53) دارجة مغربية

أ. خالد: ابراهيم **غادي يجي**

"خالد: سيأتي ابراهيم"

ب. خالد قال لي باللي ابراهيم **غادي يجي**

"قال لي خالد إن ابراهيم سيأتي"

(54) دارجة مصرية

أ. خالد: ابراهيم **راح يجي**

"خالد: سيأتي ابراهيم"

ب. خالد قال لي إن ابراهيم **راح يجي**

"قال لي خالد إن ابراهيم سيأتي"

يفاد من المثالين (53أ-ب) و(54أ -ب) أن القيمة الزمنية (المستقبل القريب) التي يأخذها مخصص المحمول في الخطاب المباشر هي نفس القيمة التي يأخذها مخصص المحمول في الخطاب غير المباشر، وهي خاصية تتقاسمها العربية الفصحى/ الفصيحة ودوارجها.

أخيرا، ومن السمات التي لم يلحقها تغيير سمة عـــدم اســـتقلال الصرف. فليس لدينا في المعطيات المفحوصة ما يؤشر إلى ظاهرة الضمير الفارغ التي نجدها في اللغتين الأنجليزية والفرنسية في التراكيب التي مـــن قبيل (55أ-ب):

(55) أ- **It** is raining

ب- **Il** est entrain de pleuvoir

2.2.2. المتغيّر

في مقابل ثبوت (48ب) و(48د) و(48 و) و(48ح)، لحق التغيير السمات الأخرى وهي السمات (48أ) و(48ج) و(48هـــ) و)48ز) و(48ط).

نُفرد هذه الفقرة لتبيان مدى وحجم التغيير الذي طرأ على هـــذه السمات.

1.2.2.2. الوظائف التركيبية

الوظائف التركيبية في نظرية النحو الوظيفي وظيفتـــان: فاعـــل ومفعول.

تسند هاتان الوظيفتان في المســـتوى الصـــرفي-التركيبـــــي إلى مكونين حاملين لوظيفة دلالية (منفذ، متقبل، مستقبل...) واردة مـــن المستوى التحتي التمثيلي باعتبارها تحدد دور المكون في الواقعة (عمل، حدث، وضع، حالة) الدال عليها المحمول.

يُرَاز ورود هاتين الوظيفتين في وصف وتفسير خصائص لغة مـــا بقابليتهما لأن تُسْـــنَدَا إلى غير المنفذ بالنسبة إلى الفاعل وإلى غير المتقبل بالنسبة إلى المفعول. سبق أن بينا أن كلتا الوظيفتين واردتان في اللغـــة

العربية الفصحى/الفصيحة، بدليل إمكان اسناد الفاعل إلى المنفذ والمتقبل والمستقبل:

(56) أ- أعطت **هند** (منفذ -فاعل) خالدا ديوان شعر

ب- أُعطِي **ديوانُ شعر** (متقبل -فاعل) لخالد

ج- أُعطِي **خالد** (مستقبل - فاعل) ديوان شعر

وبدليل إمكان إسناد المفعول إلى المتقبل والمستقبل:

(57) أ- أعطت هند **ديوان شعر** (متقبل - مفعول) لخالد

ب-أعطت هند **خالـدا** (مستقبل - مفعول) ديوان شعر

ما طرأ على إسناد الوظيفتين التركيبيتين في العربيات الدوارج طارئان:

1) احتُفظ بالوظيفة الفاعل التي ظلت بإمكانها أن تسند إلى المنفذ وغيره:

(58) دارجة مغربية

أ. شربوا الضيوف (منفذ - فاعل) القهوة

"شرب الضيوف القهوة"

ب. تْشرْبت القهوة (متقبل - فاعل)

في حين أن إسناد الوظيفة المفعول لم يعد واردا إذ لا يمكن أن يتم إلا إلى المتقبل:

(59) دارجة مغربية

أ. عطات مُنى سيارة (متقبل) لعلي

"أعطت منى سيارة لعلي"

ب. * عطات منى علي سيارة

"أعطت منى عليا سيارة"

بل إن التقلص لحق الوظيفة الفاعل نفسها من حيث مساحة الإسناد إذ أصبحت تضاف إلى المنفذ كما في المثال (58أ) وإلى المتقبل كما هو الشأن في المثال (58ب) دون المستقبل. شاهد ذلك لحن التراكيب التي من قبيل (60):

(60) دارجة مغربية

أ. تعطات سيارة (متقبل – فاعل) لعلي

"أعطيت سيارة لعلي"

ب. * تَّعطى علي (مستقبل – فاعل) سيارة

"أُعطِي علي سيارة"

2) من المعلوم أن وظيفتي الفاعل والمفعول تتحققان في العربية الفصحى/الفصيحة بواسطة الإعراب، إعراب الرفع وإعراب النصب على التوالي.

بسقوط الإعراب، أصبحت مهمة تحقيق الوظيفة الفاعل توكل إلى الرتبة كما هو الشأن في الجمل (58أ–ب) و(60أ).

2.2.2.2. المطابقة

من سمات بعض اللغات كاللغة الفرنسية، كما رأينا، مطابقة الفضلة الصفة للاسم رأس المركب ومطابقة الفعل لفاعله في كل الأحوال. المطابقة في هذا الصنف من اللغات إذن، مطابقة تامة. ورأينا أن اللغة العربية تشترط مطابقة الفعل للفاعل من حيث العدد بتقدم الفاعل على الفعل:

(61) أ– رجع الأطفال من المدرسة

ب– الأطفال رجعوا من المدرسة

ج–* رجعوا الأطفال من المدرسة

أما في العربيات الدوارج فقد ارتفع الشرط وأصبح الفعل يطابق فاعله من حيث العدد مطابقة ضرورة كما يدل على ذلك لحن التراكيب (62ب) و(63ب) مثلا:

(62) دارجة مغربية

أ. رجعوا الدراري من المدرسة

"رجع الأطفال من المدرسة"

ب. *رجع الدراري من المدرسة

"رجع الأطفال من المدرسة"

(63) دارجة مصرية

أ. رجعوا العيال من المدرسة

"رجع الأطفال من المدرسة"

ب. * رجع العيال من المدرسة

"رجع الأطفال من المدرسة"

سنعود لاحقا إلى هذه الظاهرة في محاولة تفسير لها.

3.2.2.2. الصرف الصاهر

علمنا أن العربية من اللغات ذات الصرف الصاهر، اللغات التي تُجمِّع سمات المحمول (الفعل) في صيغته، الزمنية منها والجهية.

وعلمنا كذلك أن الدوارج العربية أصبحت تنزع، بدرجات متفاوتة، إلى استخدام أفعال (أو صفات) متحجرة ("**غادي**"، "**ماشي**"، "**راح**"، "**قاعد**"، "**عَمَّال**"...) في تحقيق بعض سمات مخصص المحمول إلى جانب الصيغ.

يمكن، في نظرنا، أن يُعدَّ اللجوء إلى هذا الصنف من المفردات للتعبير عن الزمن والجهة مرحلةً من مراحل الخروج من الصرف الصاهر

إلى صرف غير صاهر أكثر تحليلية، من صـرف الصـيغ إلى صـرف الأدوات.

4.2.2.2. الزحزحة

نقول عن مكون ما إنه خضع لعملية "زحزحة" إذا ما نُقِل مـن مجاله إلى موقع داخل مجال غير مجاله، من أمثلة الزحزحة كما رأينا نقل فاعل الجملة المدمَجة إلى موقع فاعل أو مفعول الجملة الرئيسية.

العربية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، من اللغات التي يُزحـزَح فيها الفاعل إلى فاعل أو إلى مفعول. دعنا نجدد التمثيل لهاتين العمليتين بالجمل التالية:

(64) أ- [يبدو [أن **هندا** فرحة]]

ب- [تبدو **هند** [فرحة]]

(65) أ [أظن [أن **هندا** فرحة]]

ب- [أظن **هندا** [فرحة]]

أما الدوارج العربية فإن المعطيات توحي بأن عملية الزحزحـة فيها أصبحت أعسر كما يتبين من المقبولية الدنيا للتراكيـب التاليـة المأخوذة من الدارجتين المغربية والمصرية المقابلة للجمـل (64 أ-ب) و(65أ-ب):

(66) دارجة مغربية

أ. يظهر باللي هند فرحانة

ب. تظهر هند فرحانة

ج- كانظن باللي هند فرحانة

د- ?? كانظن هند فرحانة

(67) دارجة مصرية

أ. يظهر إِنّ هند فرحانة

ب. ?? تظهر هند فرحانة

ج. أظن إِنّ هند فرحانة

د. ??? أظن هند فرحانة

إن صحت ملاحظتنا هذه، أمكن أن نغامر بافتراض أن الدوارج العربية تسير نحو التخلي عن تراكيب الزحزحة، افتراض يصبح معقولا إذا نحن ربطنا هذا التخلي بتقلص وظيفتي الفاعل والمفعول في هذه الدوارج، علما بأن هاتين الوظيفتين هما أساس عملية الزحزحة.

5.2.2.2. تداخل العلاقي والتمثيلي

يَرِد على البنيتين الصرفية - التركيبية والفونولوجية، أثناء عملية تسطيح البنية التحتية، عناصرُ من المستوى التمثيلي وعناصر من المستوى العلاقي. وتختلف اللغات من حيث فصلها للمستوى التمثيلي عن المستوى العلاقي ومن حيث سعة الحيز الذي تمنحه للمستوى الثاني.

ولعل هذه السمة كانت أكثر سمات المصفوفة (48) تعرضا للتغيير عبر الانتقال إلى العربيات الدوارج. العربية الفصحى/الفصيحة من اللغات التي لا تداخل فيها بين الوارد العلاقي والوارد التمثيلي والتي يتميز فيها الحيز المفرَد للعناصر العلاقية بسعة هامة إن في صدر الجملة أو في عجزها. هاتان الخاصيتان لم تعودا ممكنتين في العربيات الدوارج بسبب فقدانها للإعراب وبالتالي لحرية الرتبة.

لتوضيح هذا الفرق، دعنا نقترح الترسيمتين التاليتين على أساس أن أولاهما للعربية الفصحى/الفصيحة وثانيتهما لدوارجها:

(68) [[حيز علاقي] [حيز تمثيلي] [حيز علاقي]]

(69) [[حيز علاقي – تمثيلي]]

3. التطور وقوانين التواصل

ميزنا في بحث سابق أنجزناه في إطار ما أسميناه "نحو الطبقات القالبي" (المتوكل (2003)) بين فئتين من العوامل التي تسهم في تطور اللغات: "عوامل خارجية" و"عوامل داخلية". نقصد بالعوامل الخارجية كل التحولات الاجتماعية والثقافية والفكرية التي تنعكس في اللغة باعتبار اللغة مرآة للمجتمع. أما ما عنيناه بالعوامل الداخلية فهي العوامل النابعة من داخل اللغة نفسها، نسقِها وآلياتها.

فيما يتعلق بالعوامل الخارجية نُوكِلُ رصدَها للمكون السياقي ولشقه العام بالذات، على أساس أن يُمِدُّ هذا المكونُ المصاحبُ المكونَ المركزيَّ (المكون النحوي) بالمعلومات ذات الصلة بالتغيرات التي تطرأ على الخلفية الاجتماعية لعشيرة لغوية معينة في مرحلة (سانكرونية) معينة.

أما العوامل الداخلية، فإننا نُرجعها هنا إلى ما نسميه مؤقتا "قوانين التواصل". وإلى قانونين بالذات: قانون يمكن أن نسميه "**قانون التواصل الأمثل**" وقانون يمكن تسميته "**قانون الكلفة الأقل**" على اعتبار أن القانون الأول يتعلق بالغاية وأن القانون الثاني يخص الوسيلة.

1.3. قانون الغاية: "التواصل الأمثل"

لنذكّر مرة أخرى بأن الوظيفة الأصل والأساس للغة هي إقامة التواصل داخل المجتمعات وأن ما عداها فرع عنها أو "انزياح"[11]. من الممكن أن نميز (المتوكل (2011)) بين ثلاث درجات من التواصل

أدناها التواصل الممتنع وأقصاها التواصل السليم يتوسطهما التواصل المضطرب كما في الترسيمة التالية:

(70) التواصل السليم 〉 التواصل المضطرب 〉 التواصل الممتنع

نقصد بالتواصل الممتنع التخاطب المحض غير المفضي إلى تفاهم لأسباب مختلفة ("تشويش" في قناة التخاطب، عدم فهم المخاطب للغة المتكلم...). والمراد بالتواصل المضطرب التواصل الذي يشوبه شائب يكون إما عرضيا يُعمَل على رفعه أو مَرَضِيًّا ملازما لأحد المشاركين في عملية التخاطب. أما المقصود بالتواصل السليم فالتواصل الذي يستوفي جميع شروط الفهم والإفهام. وللتواصل السليم مراتب أعلاها ما نسميه "التواصل الأمثل"، ونقصد به التواصل الضامن لتبليغ القصد والفحوى بأوضح وسائل التعبير.

"التواصل الأمثل"، في مصطلح نحو الخطاب الوظيفي، هو التواصل الذي يُحرَز حين تعكس البنيتان الصرفية - التركيبية والفونولوجية تماما البنية التحتية بشقيها العلاقي والتمثيلي. "التواصل الأمثل" إذن هو التواصل الذي يُحرِز أكبر قدر من شَفَّافية الانعكاس.

2.3. قانون الوسيلة: "الكلفة الأقل"

يسعى مستعملو اللغة بوجه عام، في إحراز "التواصل الأمثل" كما حددناه بأقل كلفة في الوسائل. ويتم ذلك عن طريق بذل "**أدنى مجهود في أقصر مدة**"

1) للمجهود الأدنى مظاهر عدة أهمها أربعة مظاهر نقترح تسميتها "**الترك**" و"**الاستعاضة**" و"**النقل**" و"**الاستسهال**".

(أ) من وسائل تحقيق مخصص "التقوية" ("التوكيد") المنصب على المحمول الفعل في اللغة العربية الفصحى، "نونا التوكيد"

"الشديدة" و"الخفيفة". تُلحَق هاتان النُّونَانِ، كما هو معلوم، بصيغة الأمر أو صيغة المضارعة:

(71) أ- اكتُبــنّ ما أمليه عليك!

ب- اكتبــنْ ما أمليه عليك!

(72) أ- ستكتبــنّ ما أمليه عليك!

ب- ستكتبــنْ ما أمليه عليك!

بدأت هاتان النونان يقلُّ اســتخدامهما في العربيــة الفصــيحة وأُسقِطتا من الاستعمال، فيما نعلم، في العربيات الدوارج.

(ب) الترك تركان: ترك محض وترك مع استعاضة وهو الأغلــب. والاستعاضة نوعان: استعاضة بالمُستَجِدّ واستعاضة بالموجود.

نكون أمام النوع الأول من الاستعاضة حين يعوَّض العنصر المتروك بعنصر يُختلق اختلاقا. من أمثلة ذلك تعويض أداتي الزمن المستقبل "السين" و"سوف" بفعل ("راح") أو صفة ("غادي"، "ماشــي") متحجرين. أما الاستعاضة بالموجود فغالبا ما يصحبها ما يمكن أن نسميه "**التشريك**"وهو أن يُعاد توزيع العنصر المستبقى بحيث يصبح "**مشتركا**" بين ما كان يؤديه وما كانت تؤديه العناصر المتروكــة. من أمثلة ذلك استعمال الأداة "يا" للنداء بجميع صــنوفه وسماتــه ("قريب"، "بعيد"...) بعد فقدان أدوات النداء الأخرى **كــالهمزة** وممدودها "آ" و"**أيها**"...

(ج) ليس من النادر أن يعوّض العنصر المتروك بعنصر يقترض مــن مجال آخر وينقل إلى مجال الترك. عملية النقل هــذه يصــفها هنخفلد (هنخفلد (2011 أ و ب)) بأنها عملية "تصــاعدية" تنطلق من طبقة ما إلى طبقة تعلوها ومن مستوى إلى مستوى يعلوه وفقا للترسيمة التالية:

(73) {جهة -> زمن -> وجه} -> {فحوى خطابي -> فعل خطابي}

مستوى تمثيلي ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ مستوى علاقي

تُقرأ الترسيمة (73) على أساس أن العنصر الجهي يصعد إلى مخصص الزمن وأن العنصر الزمني يمكن أن يَصعد إلى مخصص الوجه، وأن عناصر طبقة من طبقات الفحوى الخطابي يمكن أن يَصعد إلى طبقة الفعل الخطابي، وأيضا على أساس أن عناصر المستوى التمثيلي بإمكانها الصعود إلى المستوى العلاقي لا العكس.

مثال النقل داخل المستوى التمثيلي صعود اللاحق "**دأبا**" من طبقة الجهة حيث كان يحقق القيمة "**مستمر**" إلى طبقة الزمن حيث أصبح يحقق سمة "المستقبَل القريب". قارن:

(73) أزور أخي **دأبا**

(74) دارجة مغربية

دابا نمشي نزور خويا

"سأذهب لزيارة أخي قريبا"

(د) يميل مستعملو اللغة إلى **الاستسهال** فينزعون إلى ترك الصعب المتطلب لمجهود وتعويضه بما هو أسهل وما يقتضي مجهودا أدنى. أبرز أمثلة ظاهرة الاستسهال هذه الانتقال الذي سبق أن بيَّناه، من التوسل بالصرف أو التركيب إلى التوسل بالتنغيم مجردا. حصل ذلك، كما رأينا، في تحقيق الاستفهام في دارجة مصر وأيضا في المستوى الأكثر تداولا من اللغة الفرنسية.

2) سعيا في الاقتصاد في مدة عملية التواصل ينزع مستعملو اللغة إلى السرعة في التلفظ. من نتائج التلفظ السريع محوُ الفروق

بين المجالات ورفع ما يفصل بينها من "وُقوف" (جمع "وقف")[12].

سنكتفي هنا بإيراد مثال الجملة وربضيها القبلي والبعدي (المتوكل (2010)). دعنا نأخذ الجملتين التاليتين مثالا لتداخل الربض والجملة المركز:

(75) أ- الطلبة حضـروا.

ب- حضروا، الطلبة

المركز في الجملتين معا الفعل والضمير فاعله في حين أن المركب الاسمي "**الطلبة**" ربض قبلي في الجملة الأولى وربض بعدي في الجملة الثانية. تُفضي كثرة الاستعمال وسرعة التلفظ إلى ارتفاع الوقف بين الربض والمركز واندماج الأول في الثاني ليصبح مكونا من مكوناته وبالتحديد مكونا فاعلا، وتستحيل اللاحقة الفعلية "وا" إلى مجرد علامة مطابقة.

مسلسل الاندماج هذا بدأ في العربية الفصيحة وبلغ منتهاه في العربيات الدوارج كما هو الشأن في المثالين التاليين اللذين نسوقهما من الدارجة المغربية:

(76) دارجة مغربية

أ. الطلبة حضروا

ب. حضروا الطلبة

يمكننا الآن أن نفسر انتقال المطابقة بين الفعل والفاعل من مطابقة جزئية (من حيث الجنس فقط) في العربية الفصحى/الفصيحة إلى مطابقة تامة (من حيث العدد أيضا) في العربيات الدوارج كما في التراكيب

التي من قبيل (77ب). مرد هذا الانتقال إلى ظاهرة انـــدماج الـــربض البعدي في الجملة المركز[13].

3.3. بين "التواصل الأمثل" و"الكلفة الأقل"

يتيح قانون "الكلفة الأقل" بمختلف مظاهره من ترك واستعاضـــة تشريك ونقل واستسهال وسرعة تلفظ، الاقتصاد في الوسائل اللغويـــة وذلك يمكن أن يُعدَّ من وجهة نظرما مزية. إلا أن هذا القانون يـــدفع باللغة نحو الكاتمية التي قد تصل إلى حد اقصاء لغة ما من حظيرة اللغات الممكنة.

لكن اللغات عادة لا تبلغ من الكاتمية درجة التمام والإطـــلاق بل لا تكاد تشارفها. تفســـير ذلـــك في أن قانون"الكلفـــة الأقـــل" يقابله ويدافعه قانون "التواصل الأمثل" الذي يعود باللغـــة إلى أصـــل شَفَّافيتها.

من أمثلة الارتجاع إلى الشَّفَّافية بعد اكتتام أن اللغة تفرز بنيـــات "موسومة" جديدة من قبيل (78أ –ب) بعد فقدان الوســـم وانـــدماج الربض في الجملة المركز:

(77) أ– [ربض جديد [ربض مندمج – جملة]]

ب–[جملة – ربض مندمج [ربض جديد]]

تطور اللغات إذن في التدافع الدائم بين النـــزوع إلى الكلفة الأقل المفضية إلى الكاتمية والتشبث بهدف "التواصل الأمثل"[14].

إذا صح هذا الافتراض كان بالإمكان تعريف السانكرونية بأنهـــا حالة لغة ما في لحظة معينة من لحظات التجـــاذب بـــين اســـتهداف "التواصل الأمثل" والاقتصاد في الوسائل.

خلاصة:

تتطور اللغات بالنظر إلى انعكاس البنيتين التحتيتين العلاقية والتمثيلية في البنيتين الصرفية - التركيبية والفونولوجية من حيث وسائل هذا الانعكاس ومن حيث كيفيته.

يحكم هذا التطورَ التدافعُ بين قانون "الكلفة الأقل" المبني على بذل المجهود الأدنى والمدة الأقصر في عملية إنتاج الخطاب وقانون "التواصل الأمثل"، قانون يدفع باللغة نحو الاكتتام وقانون يشدها إلى شَفَّافيتها.

الهوامش

(1) سنركز، في فحصنا للمتن اللغوي، على اللغة العربية ودوارجها لمعرفتنا بها أولا وتمرس القارئ بها ثانيا. لكن هذا لا يعني أننا سنقتصر عليها دون غيرها. ولو كان بالإمكان أن نفحص عينات من لغات أخرى، إضافة إلى العربية، لفعلنا ولكان ذلك أفيد للاستكشاف والبرهنة معا.

(2) انظر تحليلنا لعلاقة العربية الفصحى والعربية الفصيحة بالعربيات الدوارج في (المتوكل (2011)).

(3) عن "الأفعال المساعدة "في اللغة العربية"، راجع (المتوكل (1987)).

(4) راجع التفاصيل في (المتوكل (1996)).

(5) ثمة أسماء في جل الدوارج العربية أبقت على المثنى الصيغي كالأسماء الدالة على التحقيب الزمني خاصة مثل "يومين"، "سنتين"، عامين"...

(6) راجع للمزيد من التفصيل في القوى الإنجازية ووسائل تحققها في اللغة العربية (المتوكل (2010)).

(7) "العبارة اللغوية"، في نحو الخطاب الوظيفي (هنخفلد وماكنزي (2008)) مقولة خطابية ("قسم" من "أقسام الخطاب") يتضمن جملة يواكبها ربض قبلي أو ربض بعدي أو الربضان معا وفقا للترسيمة التالية:

i) [ربض [جملة] ربض]

الربض القبلي هو ما كنا نسميه في النماذج الأولى "مبتدأ" (المتوكل (1985)). أما الربض البعدي، فهو إما "ذيل" أو "استفهام مستدرك". أمثلة الأرباض الثلاثة في التراكيب التالية:

ii) أ- **خالد**، لم ألتق به

ب- لم ألتق به، **خالد**

ج- لم تلتق بخالد، **أليس كذلك؟**

(8) تفاصيل رتبة أسماء الإشارة في العربية وفي لغات أخرى في (المتوكل (2010)).

(9) يتقدم العنصر الإشاري في الدارجة المصرية في التراكيب الوجهية الحاملة لمدح أو قدح:

iii) دارجة مصرية

أ. اخص على دي البنت

ب. "القلب تاه في **دي** الجمال!"

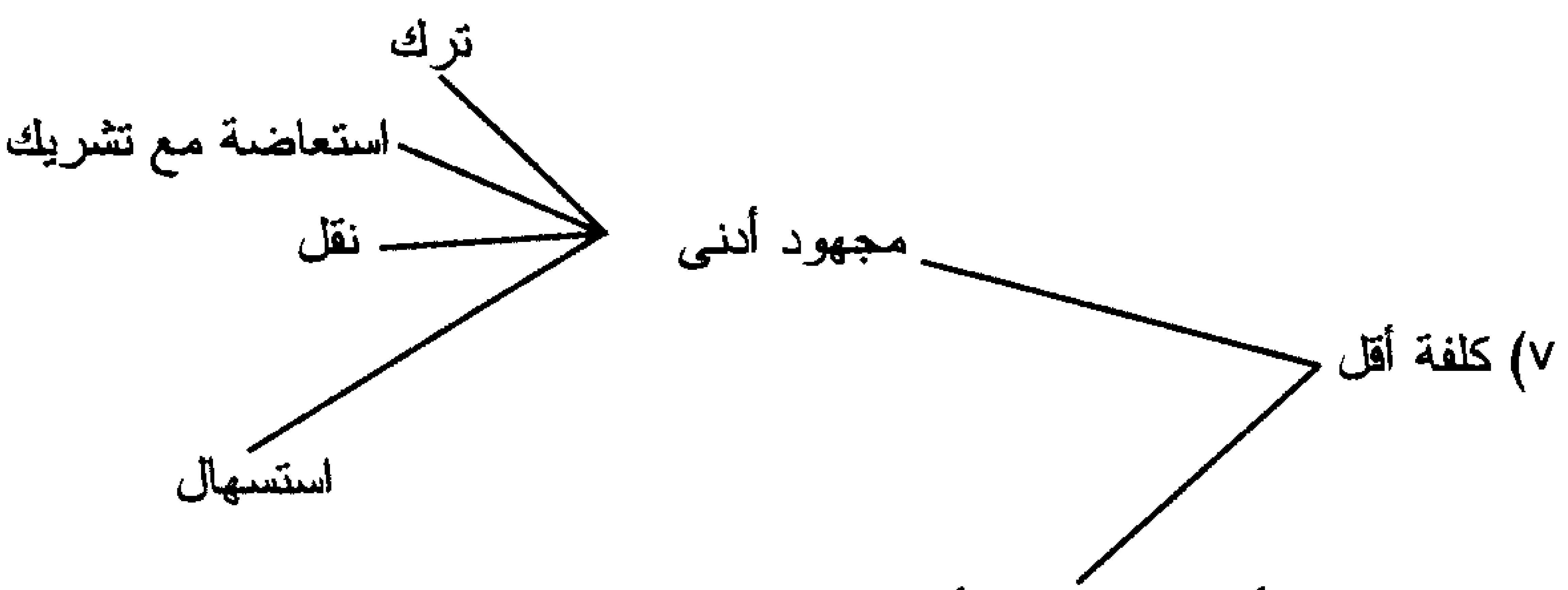
(10) يستعمل العنصر الضميري الأصل "**هو**" في صدر الجمل الاستفهامية في حالة حملها للقوة الإنجازية "الإنكار":

iv) دارجة مصرية

فكروني ازاي؟ **هو** انا نسيتك؟!

(11) نقصد بالانزياح إحدى خصائص الخطاب الفني (الأدبي) وهي الخروج المقصود عن بعض قواعد ومواضعات اللغة لأغراض بلاغية.

(12) توضيح قانون "**الكلفة** الأقل" ونتائجه في الترسيمة التالية:*



مدة أقصر --> إيقاع أسرع--> محو الفروق بين المجالات --> اندماج

(13) أمثلة ما ينتج عن سرعة الإيقاع في التلفظ كثيرة. منها اندماج الحرف من المركب في الفعل الذي قبله: "**جاء ب...**" --> "**جاب**". ومنها كذلك اختلاق أدوات للاستفهام من دمج مفردات عدة: "**أي شيء**" --> "**آش**"، "**أي شي هو**" --> "**شو**"، "**ما هو هكذا**"--> "**مُوهيك**"

(14) من أمثلة هذا التدافع في مجال المعجم النزوع إلى تحميل المفردة الواحدة مداليل إضافية بدلا من وضع مفردات جديدة والنزوع في ذات الوقت إلى الحد من ظاهرتي "الاشتراك" و"الترادف" درءا للالتباس وبغية الوصول إلى وضع (مثالي) يكون فيه مدلول واحد للدَّال الواحد ودَالٌ واحد للمدلول الواحد.

خاتمة

نرجو أن نكون قد أحرزنا بعض ما كنا نستشرف إحرازه من البرهنة على أن تنميط اللغات لا يمكن أن يكون أحادي البعد يعتمد الصرف أو التركيب أو الفونولوجيا أو الدلالة أو التداول بل يجب أن يأخذ بكل هذه الأبعاد مجتمعة وبتفاعل بعضها مع بعض.

ونأمل أن نكون قد أفلحنا بعض الإفلاح في الوصول إلى مرمى أبعد من ذلك، أن نستدل على أن عمليات تنميط اللغات ورصد تطورها وتنميط الخطابات كذلك ينبغي أن تتم بمنهج واحد ومعايير واحدة وآليات واحدة.

في هذا الاتجاه، اقترحنا آلية الانعكاس البنيوي، انعكاس المستويين التحتيين العلاقي والتمثيلي في البنية الصرفية - التركيبية والبنية التنغيمية، وبيَّنا ما أمكننا التبيين أن هذه الآلية كفيلة باحتواء معايير التنميط التقليدية ومجاوزتها وبإغناء وتدقيق تنميطات الخطاب المتداولة وبأن ورودَها وإجرائيتها لا ينحصران في حقل لغوي معين بل يشملان لغات مختلفة البنية والمنشأ.

ما نتمناه الآن هو أن تُمحَّص الافتراضات التي بُني عليها هذا البحث في تنميط عدد أكبر من اللغات والخطابات وأن تُختَبر إجرائيتها في مجالات أخرى غير بعيدة عن الدراسات المقارنة كالترجمة وتحليل الخطاب وتعليم اللغات.

ما نتمناه بالتحديد في هذا الباب أن تدرس أهمية الفروق من حيث الانعكاس وسائلَ وكيفيةً في ترجمة لغة إلى لغة أو مستوى لغوي

إلى مستوى آخر داخل نفس اللغة وأهمية هذه الفروق نفسها بالنسبة إلى بيداغوجية تعليم لغة ثانية انطلاقا من اللغة الأولى وعبرها. ومن أمامنا في نفس السياق أن يُوجَّه البحث في الكليات اللغوية من منظور وظيفي نحو العلاقة التي يمكن أن تقوم بين الانعكاس البنيوي واكتساب اللغة الأولى نفسها.

(in preparation) Some Aspects of Grammaticalization in Arabic.

المراجع

المراجع بالعربية

إسماعيلي علوي، حافيظ

(2004) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية. عالم الفكر، العدد2، المجلد 33.

(2009) اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة: دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقّي وإشكالاته. دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط 1.

البوشيخي، عز الدين

(1998) قدرة المتكلم التواصلية وإشكال بناء الأنحاء. أطروحة دكتوراه، مكناس، كلية الآداب.

(2009) أعمال ندوة "المنحى الوظيفي في اللسانيات العربية وآفاقه" منشورات جامعة مولاي إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية. مكناس. سلسة الندوات 20. ط1. (تنسيق)

جدير، محمد

(2000) مقاربة وظيفية لرواية "ضحايا الفجر". الرباط: مطبعة أبي رقراق.

الجرجاني، عبد القاهر

دلائل الإعجاز. تحقيق: أحمد مصطفى المراغي. المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة، ط. 2، بدون تاريخ.

ابن جني، أبو الفتح عثمان

الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار، ط. 2. دار الهلال بمصر، بدون تاريخ

ابن هشام، عبد الله

(1979 ج) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، راجعه: سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط. 5، بيروت.

الزهري، نعيمة

(1997) الأمر والنهي في اللغة العربية. الرباط، مطبعة المعارف الجديدة.

(2005) النحو الوظيفي واللغة العربية. الدار البيضاء، كلية الآداب، عين الشق.

(قيد الطبع) التعجب في اللغة العربية: من الفكر اللغوي العربي القديم إلى النحو الوظيفي.

(قيد الطبع): اللسانيات الوظيفية وتحليل الخطاب.

(2009) التعجب في اللغة العربية: طبيعته ووظائفه وبنياته. دار الفرقان. ط1.

(2011) الأفعال فير الواجبة في كتاب سيبويه

الإنشاء وأساليبه بين ألفية ابن مالك والنحو الوظيفي

التداوليات: علم استعمال اللغة: تنسيق وتقديم د. حافظ إسناعيلي علوي، عالم الكتب الحديث. إربد-الأردن.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان

الكتاب. تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية

الشهري، عبدالهادي بن ظافر

(2004) إستراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية. دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1.

مليطان، محمد الحسين

(2011) نظرية النحو الوظيفي: دراسة في المصطلح والمعجم، أطروحة دكتوراه كلية الآداب جامعة محمد الخامس الرباط

المتوكل، أحمد

(1977) قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني. مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد 1.

(1981) اقتراحات من الفكر اللغوي العربي القديم لوصف ظاهرة الاستلزام الحواري. كلية الآداب، الرباط، البحث اللساني والسيميائي.

(1985) الوظائف التداولية في اللغة العربية. الدار البيضاء: دار الثقافة.

(1986) دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي. الدار البيضاء: دار الثقافة.

(1987 أ) من البنية الحملية إلى البنية المكونية: الوظيفة المفعول في اللغة العربية. الدار البيضاء: دار الثقافة.

(1987 ب) من قضايا الرابط في اللغة العربية. الرباط: منشورات عكاظ.

(1988 أ) قضايا معجمية: المحمولات الفعلية المشتقة في اللغة العربية. الرباط: اتحاد الناشرين المغاربة.

(1988 ب) الجملة المركبة في اللغة العربية. الرباط: منشورات عكاظ.

(1989) اللسانيات الوظيفية: مدخل نظري. الرباط: منشورات عكاظ.

(1993 أ) الوظيفة والبنية: مقاربة وظيفية لبعض قضايا التركيب في اللغة العربية. الرباط: منشورات عكاظ.

(1993 ب) آفاق جديدة في نظرية النحـــو الـــوظيفي. الربـــاط: منشورات كلية الآداب.
(1995) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: البنية التحتية أو التمثيل الدلالي- التداولي. الرباط: دار الأمان.
(1996) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية المكونات أو التمثيل الصرفي- التركيبـــي. الرباط: دار الأمان.
(2001) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطـــاب من الجملة إلى النص، الرباط: دار الأمان.
(2003) الوظيفية بين الكلية والنمطية. الرباط: دار الأمان.
(2005 أ) التركيبيات الوظيفية: قضايا ومقاربـــات. الربـــاط: دار الأمان.
(2005 ب) مفهوم الكفاية وتعليم اللغات. كلية الآداب، مكناس، سلسلة الندوات 15.
(2006) المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربـــــي: الأصـــول والامتداد. الرباط: دار الأمان.
(2009) مسائل النحو العربـــي في قضايا النحـــو الـــوظيفي، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان.
(2010) الخطاب وخصائص اللغة العربية، الدار العربيـــة للعلـــوم ناشرون بيروت، ومنشورات الاختلاف الجزائـــر، ودار الأمـــان الرباط
(2011 أ) الإستلزام التخاطبـــي: بين البلاغة العربية والتـــداوليات الحديثة.
التداوليات: علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم د. حافظ إسماعيلي علوي. عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن.

النصوص والترجمة وتعليم اللغات الدار العربية للعلــوم ناشــرون بيروت، ومنشورات الاختلاف الجزائر، ودار الأمان الرباط